سادر الكتب

علاء أحمد

قصص

حواديت محلية الصنع

السراج
SERAJ

18 ش العرب من شارع 77 المعادى ـ القاهرة
Mobile: 01143679371 ـ 01224068553
Facebook: Seraj for Publishing & Distribution ـ
السراج للنشر والتوزيع
E ـ mail: seraj.books@gmail.com

حَواديت محليةُ الصُّنع
علاء أحمد

رقم الإيداع : 2023/29662
الترقيم الدولي : 978 ـ 977 ـ 6578 ـ 82-1

الطبعة الأولى: 2024 م - 1445 هـ

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الناشر: © السراج للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية ـ القاهرة
تصميم الغلاف: عبد الرحمن خلف
الإخراج الفني: ضياء فريد

© جميع الحقوق محفوظة لـ السراج للنشر والتوزيع، ولا يجوز، بأي صورة اقتباس، أو إعادة طبع، أو نشر فى أى صورة كانت ورقية، أو اليكترونية، أو فى وسيلة سمعية، أو بصرية إلا بإذن كتابي مسبق من الدار وإلا تعرض للمساءلة القانونية.

الإهداء

إلى.. نفسي،

أستحقُّ أن أصفقَ لها مرَّةً بعدَ مراتٍ من جَلدي لذاتي.

إلى عمر وليلى ..

تلك محاولتي لأن أترك لكما بعض الحواديت الصادقة.

تعريف لابد منه ..

عنّي..

لم أنشأ بينَ الكُتب، ولم يحْوِ بيتُنا مكتبة كما يَتباهى الكُتّاب، ذلك أنَّ أبي الفقيرَ لم تكن ضمنَ أولوياته الكتبُ والمكتبات.

إنجازُه أن يمرَّ اليومُ بالكَفاف في العيش، حلوُنا كان كوبَ الشاي «الماسخ».

أفضلُ قراءاتي كانت لدَواخلِ الناس، أجملُ القصص أخذتها من مَقاهي الكادحين، وأروعُ الروايات كانت بين حَنايا الحواري، وأبلغُ الشِّعر نداءاتُ الباعة الجائلين.

لم أرَ في الأدب العالمي مشهدًا يُضاهي بؤسي المتكررَ عندما يُنادَى على اسمي في طابور الصباح معَ زملائي الذين لم يسدِّدوا المصروفات، أو أكون اختيارَ عينِ معلم الرياضيات الجاحظة وهي تنبشُ في وجوهنا المرتعدة بحثًا عن ضحية يتلذَّذ بامْتهانها على إجابتِها الخاطئة.

كذلك لم أرَ مشهدًا يَصفُ حالةَ فرحتي عندما أجدُ في منزلنا تلكَ العلبة البرتقالية التي يُتوقَّع أن بداخلها «هريسة»..

أو نَغمًا يُشابه دقاتِ نعلِ أبي على السلم، أو صوتَ مفاتيحه على الباب.

أو عبارات أبلغَ من عبارات جدّاتي المعدِّدات في المآتم وتلقُّحَهن بالسواد، ولا يكون العيدُ إلا بزيارة المقابر وبكاء المَفقودين، مع قرْع

طبولنا الفخارية، ولعب الغمّيضة خلف شواهدِ القبور.. وكلٌّ يتخفَّى خلف عزيزه المقبور.

تعلمتُ الحيْطة من بَصقة المجذوب الأولى، وأنا أحذرُ أن يُباغتني بالثانية أو أتفادَى صفعةً منه!

أولُ نجاحاتي كان اجتيازَ جمْع أجرة «الميكروباص»، ومحوَ ذلك الذنب القديم عندما أهدرتُ على صاحب الخمسين جنيهًا باقيها.

لم يخفقْ قلبي مع أحداث وحبكةٍ مثلما كان يخفق أثناءَ هروبي من المدرسة، وتلك الأسوار العالية ذات الأسلاك الشائكة، والهروب من الشارع الخلفي الخالي إلا مِن عَفاريت الإنس تدور بينهم في خشوعٍ سيجارةُ الحشيش!

تلك مَنابعُ ثقافتي....

قد أكونُ بِدعًا بين الكُتّاب، لكنَّني أصدق المكتوب، نصف أو ربع كاتب ربَّما، لكنْ نقصانُ الإنسان في شخصي مُكتمل!

(1)

عملاتُ أبي

ما أطولَ ليل ننتظر صباحَه! لا سيَّما عندما يكون في الصباح الذهابُ لتحقيق الحلم الأسعد والأمنيةِ الأقرب.

طوالَ الليل أُمنّي النفس، أتخيَّل لونها وشكلَها في حدود المسموح لي من التمنّي وليس الاختيار! ففي سوق المُستعمل نبحث عمّا يصلح لنا من بين قديمِ أمنيات الغير ليكون جديدَنا!

لكنْ لا بأس، لن يُنقص ذلك من فرحتي؛ بل ليس عاملًا على الإطلاق من مُنغِّصات اكتمال الفرحة، فهذه طريقتُنا في الشراء، وهذا هو الطريقُ الأوحد لتحقيق الأحلام، نُقبل عليه بقناعاتٍ تعوض كونَها مستعملةً، وتُشعرنا بالفهم وحُسن التدبر، فنحن نشتري الأشياءَ بأقل من نصفِ ثمنها، وعندما تكون «كسْر زيرو» فقد اشترينا الجديدَ بسعر القديم.

طوالَ الليل، أتلصَّص على عقارب الساعة. أنظر لها خفية، أطبِّق نظريةَ أمي أنَّ تجاهل الوقت يجعلُه يَمر. لكنه لا يمرُّ، فالتجاهلُ لا يُصطَنَع من مَحض اهتمام ولا يُفتعل.

الساعة عكس ما جُبلنا عليه، لا تعمل بنشاطِها المعتاد ونحن نراقبُ عملَها، لا تحتاج إلى الأعين للإتقان؛ بل تتقصَّع بين حانات دقائقها، بينما تنشط وتعْدو عندما ننام عنها ونتركُها وضميرَها.

أتثني نوبةُ غفلة طبيعيةٌ لتُذيبني من تصلُّب وتحفز الانتظار،

وتأخذني إلى عالم الأحلام، تتقلَّب في فمي حلوى تحقيق أمنيتي وأنا أتطلع بخَيالاتي إلى ما ينتظرني من سعادات.

ستكون غدًا ملكي.. لن تكونَ معي بوقت تأجيرٍ محدد. سأدَّخر من مَصروفي لأعلِّق على «جادونها» جرسًا و«سارينة» ومِرآة. سأغيِّر طِلاءها إن كان به أذى، أو لم يرُقْني لونُه.

سأعقلِّها بجنزيرٍ في مدخل المنزل، لا.. لا، سأصعدُ بها كلَّ يوم لأضعَها في«البلكونة»؛ ذلك أضمَن.

مُميزات واستحقاقاتٌ وواجبات من صيانة وإكسسورات ومشاوير كنتُ أتكاسَل عنها تنتظرني أن أقطعَها بشغفٍ على ظهر دراجتي القادمة.

مازلتُ كذلك بين رذهات التمنّي حتى قُطعت غَفلتي الجميلةُ بجرس الاستيقاظ، لأوَّل مرةٍ أنتظرُ ذلك الجرس دونَ مقاومة من نعاس، لأوَّل مرةٍ لا أزيده بضعَ دقائق لغفوةٍ لا تُغني عن نوم، ولا تساعد على نشاط!

أوقظ أبي بلهفةِ وبغلظةِ قوةِ فرحتي، ذلك المثخَن من عمله الشاق، يصارع الحديدَ طوال اليوم يثْنيه ويسْتَعدله ليكون العمودَ الفقري الداعمَ للمنازل، بينما عمود أبي يئنُّ ولا داعمَ له.

أوقظه بلا شفقةٍ على حاله، واحتياجِه للراحة في يوم إجازته الوحيد، لكنَّه أيضًا يومُ الجائزة المنتظرة، وقد حققتُ المتفقَ عليه من درجات تعهَّدت عليها مع أبي، وتفوق يجلب الاستحقاقَ الموعود مع إتمامي الشهادة الابتدائية.

اليوم هو ذروةُ أيام السوق وتألقه وتَمامه، وبه سمِّي بـ «سوق الجمعة» وإن أصبحَ يُقام قبلَه بيومين.

سوقٌ للقديم أذهب إليه دائمًا مع أبي بشغفٍ متجدد، بل كان متنزَّهًا وإطلالةً على شارع الحلم؛ الشارع الذي تُعرَض فيه الدراجات المستعمَلة ولُعب الأطفال، المكان الذي كان يأتيه أبي على مَضض فوجْهتُه دائما شارعُ العِدد والأدوات والحدايد، لكنه كان يزورُه من أجلي، كنت أطمئنُّ على الدراجات في مساكنها واللعب المُهشَّمة، كنت أتمتعُ برؤية الألوان المُختلطة من كسْر اللعب وتراكمها فوقَ بعض دونَ ترتيب، أفرحُ برؤية السيارات الكهربائية التي كنتُ أراها فقط في الأفلام مع أبناء تجارِ المخدرات وأثرياء القوم، لا أعبأ بأجزائها الناقصة وخُروقات جسدِها من تعدّي أبناءِ الذوات التي أنقذتها من أياديهم العابثةِ بها دونَ اكتراثٍ؛ لتكون جديدًا لآخرَ يعاملُها برقَّة كحلم غالٍ تحقَّق، كنت أتفقَّد كلَّ هذا دائمًا ولسانُ حالي.. إنَّ لي فيكم لَعودة. كان ذلك الشارع هو آخرَ أشواطِ طَوافنا في أمعاء وحواشي سوقِنا العتيق تتفيذًا لإلحاحي المزعِج، إلا زيارتنا الأخيرة، والتي اصطحبْنا فيها أمّي لأولِ مرَّة لتحققَ هي الأخرى أمنيتَها في تغيير «سيراميك» الحمّام، فلم نغادر شارعَ أدوات السباكة وأطقم الحمامات لأي شيء آخر.

كان يومًا عصيبًا، ليس فقط لعدمِ تلبية رغبتي والمرورِ على شارعي المفضَّل ولكن لتعثُّر حاجة أمي، فكلَّما أعجبها لونٌ وطِراز «للسراميك» الجديدِ لا نجد منه الكميةَ المطلوبة، حتى رضخْنا لمنطق المُتاح فأخذناه عن المأمول.

أمّا اليوم، الوجهةُ واحدةٌ؛ شارعي المفضَّل، ومن أجل شراءِ دراجة الأحلام.

كعادتِه والدي ارتدى ملابسَه سريعًا، هندامه يسيرٌ يَكفيه أن يمررَ يدَه على قَميصه المجعَّد، ويشدُّه من أسفل ليفردَ ما استطاع منه، ويشدَّ وثاقَ الخصْر بسلك الرباط المتبقّي في جيبِه من العمل لينزلَ القميص ساترًا لكل هذا.

قُبيل الخروج، كان اطمئنانُ أمي وسؤالُها لأبي «هل أخذَ المال المُدخر لذلك من قَعر المزْهرية؟» ليُطمئنها هو بإيماءةٍ سريعة مُستجيبًا لجذبي له كي نعبرَ عتبةَ البيت، ونخطو أولَ خطوة للسوق.

خطواتٌ تتبعُها خطوات هَرولة دون تلكُّئ لنكون أمامَ الترام الأصفر، وبسُرعة غيرِ معتادة تخطَّى ترامُنا محطاته التي تحول بيننا وبين مُرادنا وقد اكتظَّ بالركاب الذين حُشوا على دفعاتٍ من وقفاته الرئيسية التي بدأتْ من صينية «الورديان» ثمَّ «الطويل وخفاجة والقباري».. إلخ.

ليلفظَ من جوانبه أكثرَ مُحتشديه عند ميناء البَصل عندما أعلن الكمسري «سوقُ الجمعة يا حضرات، محطَّة سوق الجمعة»، لينتشر الحشدُ الذي كان مضغوطًا في مَضيق الترام إلى أقسام وشوارع السوق.

زحامٌ شديد، تَقاطعات بين البشر، أعينُهم تدور على حاجتِهم، وأنا بدوْري أحاول شدَّ فضول أبي ليسيرَ معي دون مهل المشاهدة وعطلة الوقوف عند فَرشاتِ العِدد والأدوات أو الاستماع لوَساوس

وإغراءات أصحاب المَزادات التي تبدأ فيها أسعارُ ماكينات الحلاقة الصيني بخمسة جنيهات!

تمَّ الوصولُ أخيرًا إلى وِجهتنا. لم أتبعْ تعليماتِ أبي بعدم إظهار اللَّهفة أمام البائع حتى لا يزيدَ علينا الثمنَ؛ فلهفَتي كانت أقوى من قبضة تَماسكي، لكنَّ أبي قد تحكمَ في الأمر في أولِه بإبلاغي أننا سنشاهد فقط الآنَ كلَّ المعروض ونُحدد الأفضل، ثمَّ نذهب إليه فيما بعدُ لنبدأ الشراءَ في هدوءٍ بعد شوط المشاهدة.

الدَّراجات كثيرة ومتراصَّة؛ فالأيامُ موسمٌ لانتهاء الامتحاناتِ ولتلبية استحقاقات النجاح.

درّاجات عليها طلاءاتٌ كاذبة تُخفي اللحام والكسورَ، وزينةٌ مبالَغ فيها كمُستحضرات تجميل محليةٍ على امرأة عجوز، لكنَّ عيني المشتاقة تنبهر كعينِ مُراهق يحنُّ إلى الجنسِ الآخر.. وأيّ آخر.

حدَّدنا بدقةٍ وبشُورى بيننا أفضلَ الخيارات لنبدأ المرحلةَ الثانية.. الشراء. مرحلةٌ كنت لا أخشاها أبدًا، ذلك أن ثقةَ أبي كانت حاسمةً بأنَّ ما أتمناه سوف يكون.

ثقةٌ ربَّما نابعةٌ من تخطيطِ أبي لذلك اليوم بالادِّخار، فدائمًا أمانينا أغلى ممّا في جيوبنا، ودائمًا الثمنُ حائلنا الأكبر.

***

بدأنا عمليةَ الشراء.

تعمَّد أبي إبعادي قليلًا عنِ المفاوضات مع الرجل صاحبِ الدراجة

الأفضل التي جعلناها أولَ اختيار لنا، وأنا أيضًا كنت منهمكًا بالبحث في جوانبِ الدراجة والتأمل في مميزاتها، حتى قطعَ ذلك يدُ أبي تأخذني لنذهبَ دون حديث، لكن ملامحُه المخذولة تَشي بكلِّ شيء، وتُنبئ بفَشل العملية، لنذهبَ بعدها متعجِّيلن لبائعٍ آخر، كأنَّ أبي يريد أن يتجاوز ما سبقَ ويشتري سريعًا دونَ الدخول في لعبةِ التمنّي والتعلق، ثمَّ إخراجي من بين ثَنايا الملكية للفقد، كما تعاملتُ مع الدراجة الأولى بثقةِ المالك وأنا أختبر أجزاءها.

أخذَ أبي يجرُّني نحوَ الاختيار الثاني، وقد تركتُ بَصري عند الأولى، وكعادة الأشياء تزدادُ جمالًا كلما زادت صعوبةُ امتلاكنا لها.

انعكستِ الطريقة التي بدأنا بها رحلتَنا من الصباح فأخذَ أبي يهرول وأنا مَن أتباطَؤ، وكأنّي ألملمُ بقايا رغبتي المَهدورة على أجزاء الدّراجة الأفضل.

يتمتمُ أبي في سخطٍ وهو يمرقُ بي بين أجسادِ وحاجات الكادحين:

- ما هذا الافتراء! يستغلّون رغباتِ الأطفال في موسم الإجازة، وانتهاء الامتحانات إنْ كان هذا سعرَ القديم فالجديدُ أولى.

وصلْنا عند الثاني، وبثقةِ مَن يرى كثرةَ الطلب ألقى البائعُ السعرَ في وجْه أبي وهو يجلس مسترخيًا دون اكتراثٍ وكأنه قد قرأ بخِبرته أن أبي لن يكون ذلك المشتري المُنتظر!

وكردَّة فعلٍ بالمثل لم يعقبْ أبي، ولم يبدِ رغبةً في التفاوض الذي سيكون دونَ جدوى؛ فالسعرُ أبعدُ ما يكون عن المحدد والمُتاح لتلك

المهمة.

أخذَ سقفُ أحلامنا في الهبوط بعدَ توالي عمليات الفشل في الشراء.

موقفٌ صعب زادَ من قساوته الكدرُ والتمعُّر الذي اعتلى وجهي وتلك الدمعاتُ المَحبوسة كانت كطعناتٍ ونكزات على جروحِ قلَّة ذات اليد عند والدي.

لم يكنْ سنّي يستوعب فكرةَ رفع الحرج عنه، أو التظاهر بعكس ما أشعر.

لا أدري لماذا لم يحسبْ أبي لذلك حسابًا! كان متكئًا فقط على نيَّته الجميلة في إسعادي، ورغبتَه في تلبية حلمي أكثرَ من العملات الورقية، لكن ليس هاهنا يا أبي مقياسُ «إنما الأعمال بالنّيات».

أقولُ في نفسي أنْ أكون الثاني على مستوى المدرسة والخامس على مستوى الإدارة التعليمية لا يكفي لأنْ أمتلك دراجةً مُستعملة، فضلًا عن رغبة أمّي وأبي في إسعادي، لماذا تكون النقودُ أغلى مما حقَّقته لماذا؟!

***

يُهرول أبي ويمدُّ الخُطى يجرُّ خلفَه خذلانًا مثقلًا، وحاجةً مَشروعة لفلذة كبدٍ متفوّق.

نعيدُ نفسَ المشوار، وننظر نفسَ المعروضات، وهو يكتمُ في فمه اقتراحَ الانتظار للأسبوع المقبل، وأنا أنظرُ إليه برفضٍ مُسبَق حتى لا

تخرج منه.

بمبدأ جبرِ الخاطر والعودة بأيِّ شيء أخذَ يسأل عن دراجاتٍ لم تكن في الحُسبان من الأساس، ولا تَصلح، وكنتُ بإيماءاتٍ رافضة أثْنيه ولا أذهبُ معه عندَ البائع، مُعلنًا الرفضَ التّام بعد أن تعلَّقت بالأفضل، ورافضًا أيضًا العودةَ صفرَ اليدين.

لم أكن مستعدًّا لسَماع أيِّ شيء أتصبَّر به، إلا أن يكون اليوم.. اليوم.

مازلنا في سَعينا بين تجمُّعات الدرّاجات، يأتي آخرون بدرّاجات جديدة، وتُباع أخرى كنّا نودُّ شراءها، لكن ومعَ مَجيء العديد كان الأمر قد حُسم بالفشل؛ فالأسعار عليها شبهُ إجماعٍ كأنها موحَّدة، خاصَّة لتلك الدرّاجات التي تَصلح، والتي أتمنّاها بالتحديد. في هذه اللحظات، كانت عيني معلَّقة على درّاجة لم تطأ أرضَ السوق بعد، مازالَ صاحبها يفكُّ وثاقَها من فوق سقف سيارته الفارهة، درّاجة أنيقة دون ابتذال بإكسسورات شعبية، دراجة تشبه صاحبَها المنعَّم، وتشبه السيارة التي أقلَّتْها.

كالجديدةِ تمامًا، مزوَّدة بتروسٍ للسرعات، ومولِّد كهربائي للإنارة، وجهازٍ للتنبيه، وكرسي رياضي.

ما إن نزلتْ بجَلالتها أرضَ سوقنا حتى خطفتِ الأنظار، وحاوطَها الجميعُ يسألون عن السِّعر ويتفحَّصون مَفاتنها بأعين عَوَزهم، وأنا أنظرُ من بعيدٍ وأشرب كوبَ عصير المانجو من عربةِ السوق الشهيرة كفترة راحةٍ من الركض وراءَ الحلم الأبيّ.

بينما أنا كذلك أحملقُ من بعيدٍ انسلخَ أبي عن جواري في تؤدةٍ إلى جمْع المتفرجين على الدراجة، لم ألحظ توجهَه إلا عندما دخلَ كدْر الصورة التي لم أرفعْ عيني عنها، وقبل أن أصلَ إليه عادَ إليَّ بعد حوارٍ قصير مع مالكها، والذي رمَقني بنظرةِ شفقة عابرةٍ وأنا أقبلُ على أبي الذي غادرَه للتَّو، ليسبقَ أبي فُضولي قائلًا بأنَّه يعلم أن سعرَها غالٍ، لكنَّه ذهب كي يسأل، فمثلُ تلك الدراجة مَن تستحقُّ أن نجمعَ لها المزيدَ من الأموال؛ إنها «كسر زيرو» ولم تُهان، ومستوردة من الخارج.

كلماتُ أبي وما فيها من قلَّة الحيلة ورسائل تَشي بأنه ليس ثمَّة شراء اليوم، وأنَّ العودة أفضلُ كي نكمل الثمنَ علَّنا نتعثَّر في الجمعة القادمة أو التي تليها بفرصةٍ كتلك الدراجة «اللُّقطة».

استسلمتُ للعودة مُكرَهًا وقد تبددَ حُلمي في شارعي المفضَّل ويومي المنتظر. أسيرُ مع أبي في طريق الدرّاجات الطويل غاضًّا للبصر إلا من بعضِ نظرات خاطفة للخلف أطمئنُّ على الدراجة العروس مَن سيكون عريسَها، لكن لا أحد ينالُها، الكثير فقط حولَها مِن كبيري الأمل قصيري الأيدي!

ظللتُ كذلك أقطع الطريقَ دون اهتمامٍ بما يَحزوني من وصيفاتٍ وقد تركتْ الأميرة خلفَ ظهري. أسير قاصدًا نهايةَ الشارع والذي يقطعه الطريقُ العمومي حيث محطةُ الترام التي تعود بنا.

لكنَّني وقبلَ النهاية بقليل استدرتُ بنظرة مودِّع عليها.

فوجدتُّ صاحبها يرفعُها ليُعيدها مرَّة أخرى على سقف سيارته.

لقطة استدعتِ ابتسامتي في عزِّ حزني!

لا أدري أهوَ مِن قبيل الأنانية أن لا أحد قد نالَها؟ أم أنَّ عدم بيعها أشعرني بأن الكثيرَ تشارك وتقاسَم معي الخذلان، وبالأخصّ أولئك الذين اجتمعوا عليها طالبين يدَها الغالية!؟

لقطةٌ كانت كفيلةً أن يرد إليَّ كلَّ بصري ليكون أمامي وكلّ تعلقي ليكون داخلي، والتّماهي مع خطواتِ أبي لنَستشرف محطةَ الترام التي بدتْ قريبة.

عندَ وصولنا على أولِ الشارع استرعى انتباهَنا المشتّت السيارةُ الفارهة التي تَركناها وراءَ ظهورنا، تقف أمام أعيننا بينَنا وبين محطة التّرام، متوَّج رأسُها بعَروس الدراجات، قد أخذ صاحبُها عكسَ اتجاهنا وخرجَ للشارع العمومي من الخلف، ثمَّ أتى ليكون على رأسِ الشارع الذي سنخرجُ منه ليكون أمامنا، وإذا به عندَ اقترابنا يشير على أبي من داخل السيارة لنأتيَ إليه، ذهبنا في خطواتٍ تدفعها طاقةُ الأمل والفضول لنجدَه قد همَّ بالنُّزول لاستقبالنا، ويباغتني فورَ وصولي وأبي وهو يمدُّ يدَه على وثاقِ الدراجة ليفكَّه وهو يقول:

«مبروووك عليك، لن تكون لأفضلَ منك».

ليردَّ عليه أبي:

- كيف وقد أبلغتُك بكلِّ ما في حوزتي من مالٍ وهو لا يكفي.

- نعم، وقد أبلغتني أيضًا أنَّ ابنك من أوائل الشهادة الابتدائية، ولو حسبنا كلَّ درجة بجنيه، وإنْ كان ذلك قليلًا، ستكون درجاتُه أعلى

من ثمنِ الدراجة بكثير.

أنا لا أحتاج تلك الدراجة، أنا أبيعُها لدواعي السفر، قد استعملَها ابني لشَهرين، وعندما أتيتُ بها إلى هنا كان الجميعُ يبخس سعرَها كي يعيدَ بيعَها بعد شرائها منّي، ولم أجد مقابلًا يُساويها سوى تفوق ابنك ورغبتك الكبيرة في إرضائه ونيتك في إسعاده عملات خاصة تعدت في قيمتها العملات الورقية .

أنا سعيدٌ للغاية بأنني استطعتُ حسمَ أمري سريعًا ولحقت بكما، لأتشرَّف وأشتركَ معك في تكريم ابننا المتفوق.

(2)

السِّبنسة

تحركَ القطارُ بالفعل. لم تكنِ ارتجافةً مثلَ سابقيها من إيماءاتٍ بالتحرك، سرعانَ ما يتوقف القطارُ مرَّة أخرى بعد هزةٍ ارتدادية ميزتُها الوحيدة أنها تعطي الأملَ بالتحرك بعد وقتٍ طويل من سكتتِه الحركية.

دفقةُ أملٍ تتخلل صبرَ الركاب المَحشورين في قطار «القشاش» تأتي ببعض نسماتِ الهواء التي ضلَّت طريقَ الحرية بالخارج لتختلط مع أنفاس الركاب الناقمة ورائحة القطار المكمّمة.

بدأ القطار رويدًا رويدًا بالعدْو من بعدِ الهرولة مؤكدًا على تعافيه من العطل، فسكنتْ قلوبُ القاطنين باهتزازه وترنُّحه على القضبان، وأنصتتِ الآذان لسيمفونيةِ ضوضائه المريحة للمسافرين عن هدوء الأعطال؛ أعطال لا تَوقّعُ لها، ولا ينبغي لأحدٍ من الركاب أن يعرف مدةَ وقت إصلاحها، ولا سببها، فقط تعلم أنَّ القطار قد توقف من توقفه.

لكنَّ الأمر لم يمرّ علينا دون ضررٍ فقدْ دخل القطار إلى طنطا متأخرًا عن موعدِه نصف ساعة، ممّا أضاع علينا اللحاقَ بالقطار الثاني في رحلتنا المتَّجهة من طنطا إلى الإسكندرية؛ قد خرج قبلَ وصولنا بربع ساعة، ولا قشاش آخرَ يحقُّ لنا ركوبه بكارنيه الاشتراك الطلابي إلا بعدَ ثلاثِ ساعات! مِن هنا بزغَ في دماغ أصدقائي شمسُ فكرتهم القديمة ومغامراتُهم المؤجَّلة «السبنسة»، وهي التعلقُ في

آخر عربات القطار المكيّف، بالتحديد عندَ العتبة البارزة من مؤخرته.

فكرةٌ قد أُجهضت مرّتين بفعل عدم موافقتي في السابق، فلم يكن الانتظار لثلاثِ ساعات مبررًا كافيًا لتلك المغامرة المُرعبة على حدِّ ما نسمعُه من قصص وأخبارٍ مُتداوَلة عنها، مغامرة لها أصحابُها من أولى العزْم من الكادحين والبسطاء المُعتادين ذلك، ولها أيضًا ملابسُها أحيانًا من تَلفيحة تقي الآذانَ من الهواء الطلق، وقفازٍ حتى لا تُجرَح الأيادي المعلَّقة بالحديد العُلوي للعربة الأخيرة، ولها خطةٌ محكمة للركوب والنزول.. خطة قد علمْناها من مُشاهداتنا السابقة، ومِن حواديت الرصيف.

***

يكون التجمعُ على العتبة بعد التحركِ مباشرة وقبلَ أن يغادر القطارُ «بسبنسته» الرصيفَ بالكلية، حتى لا يتمَّ القبضُ عليك من أمن المحطة، لحظة النزول وإخلاء السبنسة تكون قُبيلَ دخول القطار المحطة، وقبلَ توقفِه بثوانٍ على الرصيف يكون الإخلاءُ السريع، ومن ثمَّ الانتشارُ في أماكن متفرِّقة حتى لا يستطيع عساكرُ المحطة الإمساكَ بك وعملَ مَحضر للركوب المُخالف، وكأنها عقوبةُ مَن يصل دون أن يقع في الطريق.

كلُّ عيون أصدقائي في هذه الأثناء قد توجَّهت إليَّ بعد همهمات جانبية فيما بينهم بمُبررات ضرورةِ عدم تفويت تلك الفرصة، خاصَّة وأنَّه اليوم الأخير لامتحانات آخر العام من بعدِ أسابيع في المدينة الجامعية دون العودة إلى الأهالي.

يُحَفز أحدهم.. «لماذا ننتظرُ ثلاثَ ساعات من أجل القشاش الذي سيأخذ أكثرَ من ساعتين ليصلَ بنا إلى الإسكندرية.. إن وصل! ليكون الوقتُ الكلي خمسَ ساعات وأكثر، ومن المُمكن أن نصلَ بالمكيف بعدَ ساعة واحدة، وسيقلع بعدَ ربع ساعة من الآن!».

ويقولُ آخر:

- الأمرُ ليس بالصعوبة، وقد فعلَها بعضُ الزملاء من قبْل إنِ اقتدينا بطريقتهم فلن يكون ضررٌ، على الأقلِّ نكون قد جرَّبنا تلك المغامرة، فكيف بعدَ أربع سنوات بين القطارات لم نجربْ هذه الركوبة، خاصَّة وأننا في حاجةٍ لذلك على الأقل الآن!

وقال ثالث:

- كلُّ ما يَعنيني أن أجربَ شعور المرور السريع على المحطات دون توقف، أتذكر عندما كان قطارُنا يأخذ جانبًا ليفسح القضبانَ أمام ذلك القطارِ السريع فيما يسمَّى «بالتخزين»، كنّا نخاف من مرورِه الخاطف وصوتِه الصاعق، نشعر أنَّ له جلالة، لا أعلم لماذا حتى في المواصلات يجعلون قطارَ القادرين يلفحُ وجوهَنا ويمرُّ أمامنا كسراب ككلِّ الفرص التي تفوتنا، بل وعلينا إفساحُ الطريق له، أنا أريد أن أركبَه، وإن كنت في ذيله متعلقًا، أريد أن أتركَ الانتظارَ ولو لمرَّة.

شعرتُ وقتَها أنه وُضِع على عاتقي كلُّ أحلام أصدقائي، وأنَّ طريقتهم هذه المرَّة توحي بقولهم الخفي.

بأنَّه لا مجال لرفضك، وإن رفضتَّ سنتركك.

شردتُ بفكري قليلًا أتخيَّل المشهدَ كيف سيكون، حتى قُطع ذلك الشرودُ بسؤال مباشرٍ بدَا وكأنه جماعي:

هل ستكون معنا؟

تلكَّأت في الإجابة، حتى باغتَني أحدهم:

- ردّ بسرعة، ليس هناك وقتٌ حتى نتفق على كيفية الركوب، خاصَّة أنه يوجد الكثيرُ من الصعايدة مرابطين عند ذيله.

هنا لم أجد بُدًّا سوى بالموافقةِ المترددة، فعزمُهم هذه المرة لا رجعةَ فيه، ولا أحب أن أكون الخائفَ الوحيد بينهم، قد عرَّى إقبالُهم خوفي الكامنَ الذي كنت أغلِّفُه دائمًا بمبرّرات حكيمة.

وافقتُ وإن كان حافزي نفسيًّا، فقد كنت أحتاجُ إلى كسر حاجز التحفظ والحيطة المعتادة، أردتُّ أن أثبتَ لنفسي أنني أستطيع فعلَ ما يفعلون، وإنْ لم يكن لي فيه حاجةٌ ولا متعة، لكنه إثباتٌ لاتِّهام خفيٍّ قديم دائمًا ما يقرعُ أذني، وبَطْحة أتحسَّسها طوالَ الوقت عند تداول تلك المواقف علينا.

ما أن انْسلخت تلك الموافقةُ من فاهي على استحياءٍ حتى دخلت في تصورِ الرحلة، وبدأت دقاتُ قلبي بالدخول في أجوائها قبلَ أوانها، تلك الدقاتُ التي دائمًا ما تَسبقني للولوج إلى المواقف الصعبة التي تتثاقَل قدماي عن المُضيِّ قُدمًا إليها.

بدأ صديقُنا «حازم» يتحدَّث إلينا بنَبرة حسمٍ وجدَ عن خطواتنا المقبلة أولها الذهاب لآخرِ الرصيف، وانتظار ذيل آخرِ العربات، ثمَّ

بعد ذلك أخذَ يتحدَّث عنِ الطريق، وما سيَعترينا فيه من بعض القلق، ونحن مُعلَّقين بين السماء والأرض، لكنه كما أردف.. «إنَّه أمر ليسَ بالصعب علينا، فبعضُ العمّال تلك وسيلتُهم اليومية، وروتينُهم الدائم»..

ثمَّ بعد أخبرنا بأنَّ الراحة والتقاطَ الأنفاس ستكون في محطة دمنهور، تلك المحطة الوحيدة التي يقفُها القطار بعد الخروج من طنطا، ثمَّ بعد ذلك الإسكندرية، كما نبَّهنا بأنه يجب علينا توخّي الحذر عند النزول في دمنهور، ولا ننسى التفرقَ قليلًا وسطَ الزحام، ثمَّ التجمعُ مرَّة أخرى.

تعليماتٌ وتنبيهات تخبر أننا على مَقربةٍ من أمر جلَل، ومغامرة استثناء، مغامرة بدأ تصوُّري لها يزدادُ وتفاصيلها تتجمَّع أمامي متجسدة، وعيني تدور في رحَى المحطة العملاقة بأرصفتِها المتوازية، أشعرُ وكأنَّني سأعتلي المسرحَ الآن وليس السبنسة، وأنَّ أولئك المنتظرين لقطاراتِهم هم المشاهدون لفقرتِنا، على الرغم من أنَّها طريقة مُعتادة للبعض، ومشهدٌ مُهمل على تلك المحطة، إلّا إنَّ دخولي فيه كبطلٍ جعلني أشعرُ أن الكلَّ سيراقبه ويهتمُّ له، هكذا دائمًا تصوري المبالغ للأمور.

ارتفعَ في الأفق صوتُ بداية المغامرة بتنبيهِ مُغادرة القطار للمحطة، أرصفةُ المحطة خليةُ نحل، الناس في تقاطعاتٍ وتحركات عشوائية، كلٌّ يُهرول إلى عربة حجزِه المدوَّنة على التكيت، ونحن مزروعون عندَ نهاية الرصيف مع أصحاب المؤخرة، والتي قد كثر عددُ منتظريها.

للَحظة شككتُ في تمكُّني من إيجاد موضع قدمٍ على تلك السبنسة بين هذه الأعداد الغفيرة المتمرِّسة، لكن خبطة «حازم» الحازمة على كتفي بالاستعداد كانت كفيلةً لهروب شكّي، وأصبحت أكثرَ تحفزًا من ذي قبل، ليس إقبالًا على المغامرة ولكن ليَنتهي ذلك التردُّد على العتبة التي ليس بعدَها رجعة، ولا راحة إلا عند محطة «دمنهور».

بدأتْ زمجرةُ عجلات القطار وهي تحتكُّ بالقضبان بالتنامي، وبدأتِ العرباتُ واحدة تلوَ الأخرى تعبر الرصيفَ وتمسح أعيننا المُحملقة في انتظار تلك الأخيرة، امتدَّت أيادينا بحركةٍ لا إرادية تنتظر اقترابَ العربة، ورُفعت أطرافُ أقدامنا من الأرض تأهُّبًا لقفزةٍ بسيطة على العتبةِ المرجوَّة.

وصلت أخيرًا تلك المنتظرة من همِم الرجال وأعينهم، الجميع يقفزُ من حولي، أصواتُ الأصدقاء جميعُها تتداخل وتتوحَّد باسمي، حتى فككتُ نفسي من تردُّدي، وتركتُه على الرصيف بفعل خطوةٍ مفتوحة لم ترتقِ لقفزة، فإذا بقدمٍ قد حطَّت رحالها على العتبةِ وأخرى قد زلَّت، ويدٌ مُمسكة بجزءٍ بارز من الباب الخلفي وأخرى في يدِ أحدِ المنقذين لجسدي من التَّهاوي أرضًا.. يدٌ سرعان ما أصبحت أيادي تتشبَّث بمواضع كثيرة من ملابسي، لم تنفكّ عنّي حتى أصبحتْ بكامل جسدي على عتبة السبنسة، مغامرةٌ بدأت بأصعبِ فقراتها، ولم تتحلَّ برَوعة البدايات.

سرعةُ القطار تتزايد وأنا كنخلةٍ في موضعها لا أتحرَّك ولا أنظر لأحد، وجْهي مُختبئ بخجلِه، وما حدث عند ركوبي، بَصري أسلمه

لباب العربة لا أزيغُ عنها، أشعر وأنَّ الجميع ينظر إليَّ، لا أعلم أين زملائي، ولا أحاول البحثَ عنهم بعيني المَكسورة من هولِ الموقف، وقلبي الذي لم يتوقف بعدُ عن الارتجاف.

عُقد الألسن أخذت تنفكُّ شيئًا فشيئًا، والأحاديث الثنائية من مُعتادي ركوب السبنسة أخذت تشارك ضوضاءَ القطار والهواءَ الطلق في السَّطو على مسامعنا نحن الخائفين أصحاب المرَّة الأولى، أحاديث لا أكادُ أسمعها أو أفسِّرها رغم قربها منّي، وذلك أنَّ شيئًا بداخلي يأبى إلا أن أحترمَ الموقفَ بكل حذرِه وقلقِه، وكأنَّ الإنصات نوعٌ من إثارة حفيظة أهوال المغامرة، فلا بدَّ من مَنحها المَهابة لتهدأ كي لا تباغتني برعبٍ أشد!

تحررَ القطار من كلِّ تحفظِه، وأخذ يمرقُ بسرعة رهيبةٍ يمرُّ على المحطات التي لن يحترمَها وأهلها وكأنَّه برقٌ يذهب بالأبصار، أجسادنا تترنَّح من الهواء مُتماهيةً مع ترنُّح القطار وطبول عجلاته، نكادُ أن نطير لولا أنَّنا مُثبتون بقبضةِ أيدينا على الحديد.

عشرُ دقائق فقط قد مرَّت، لمحتُها من ساعتي بطرف عينٍ خفي حتى لا أفسد حالةَ خشوعي وخضوعي لسلطان الموقف.

طويلٌ جدًّا ذلك الوقت اليَسير الذي مرّ، قد خاب حسابُ صديقنا «عادل»، ولم يعدل عندما زعمَ أنَّ خمس ساعات في طمأنينة وقت طويل ومُملّ وأطول بكثير من دقائق سبنسة المكيّف! لم يعلم أنَّ لحظات القلق أطول، وثانية الخوف بمائةِ ساعة مما يعدّون.

أتندَّر الآن في وقفتي التَّعيسة هذه على ساعات القشاش الطويلة

مَنزوعة الحذر والحيطةِ، كاملة الدسم بتفاصيل ضحكاتنا وتنمُّرنا ومواقف البسطاء.

الهواء يتحرشُ بنا من كلِّ اتجاه، الروائح تتداوَل علينا حسب ما نمرُّ به من زروعٍ وترعٍ وحرائق على الجانبين.

الآن فقط، بعدَ مرور حوالي ربع ساعة، بدَا صوتُ أصدقائي يتنامَى ويصلُ إلى مَسمعي، هُم على الطرف الآخر من السبنسة، حدَّدت موقعَهم من منبع الصوت وقوته، لكن بيني وبينهم كتلةٌ من بشرٍ متداخلة ومتشابكة. كانت مشاركتي الوحيدةُ مع أصدقائي في هذا الوقت هي إجابتي على نداء «حازم»:

- علاء، أنتَ معنا..؟

قالها مُغلفة ببعض سُخريته المَعهودة كدليلٍ على أنه غير مُهتم بالموقف الصعب.

فرددتُها عليه بعد استجماع قوّتي:

- أخيرًا خرج صوتك، ظننت أننا تركْناك في طنطا!

لحظات من ادِّعاء اللامبالاة، تبعها يقظةُ حذر، وتمسُّك بقبضة أقوى على باب العربة.

ظللتُ كذلك حتَّى شعر بي أحدُ المجاورين من أصحاب الخبرة الطويلة فإذا بنصيحتِه الذهبية لي.. «ارْخي قبضتك قليلًا واسمحْ لتخشُّب جسدك باللّين، ستتعب كثيرًا بطريقتك، وتُرهق يدك، نحن لسْنا في عقاب! أمسكْ بيدٍ واحدة واتركِ الأخرى واسْتدِرْ بجسدك

وتحدَّث؛ مازال الطريق طويلًا..».

بدأتُ بحذر أرفع بعضَ الحذر، أحاول الحديثَ، أثْني جسدي قليلًا وأفردُه، أرفع قدمًا وأثبّت أخرى، أما صاحبُ النصيحة فقد أخذه الحديثُ معنا وهو يحكي بطولاتِه في القطار، فترك حيطتَه بالكلية؛ بل أخرجَ من جيبِه علبةَ السجائر إمعانًا في الاستعراض.

يدخنُ ويروي ويضحك.. حتى مرَّ القطار بمُنعطف على نفس سرعته فإذا بنا جميعًا نتمايل على الجانب الذي تمايلَ عليه القطار، وإذا بقدمِ صاحبنا قد همَّت بخيانته لولا سرعةُ تمسكه بالباب الحديدي في حركة مرْتَجفة منه لتنفجرَ الضحكات في هذا الموقف العسير، تتغشّانا ونحن على ثغورِ العتبة كما تغشاهم من قبْل أمنةً النعاسُ وهُم على ثغور الحرب.

لأولِ مرَّة أشعر بقدْر الدقيقة، شعرت بها ستينَ وخزةً أصبحت دمنهور هدفًا ومستقرًّا تتوق لها القلوب، وتتوجَّه نحو طريقها الأبصار.

القطارُ في طريقه غيرُ عابئ، أعيننا ترمقُ من خلف زجاج العربة الأخيرة خيالاتٍ من ركاب المكيّف الذي نستقلّه، ولكن شتّان أن تتساوَى الرؤوس وإن توحَّد القطار!

جميعُهم مسترخون على مقاعدهم القابلة للانبساط.

ونحن خُشُب مسنَّدة لا سبيل لنا غير ذلك.

منعطفاتٌ ومحطات نمرُّ عليها لا يَنالنا منها سوى غبارِها وصوتِ

الهواء المصطدم بالكُتل الخرسانية للمباني مختلطٌ بتنبيهات المكيف الصارخة بالهَيبة، ونحن على ترقُّب لدمنهور، قد نسينا أنَّ وِجهتنا الإسكندرية، لا سيَّما وأنَّ غالبية أصحاب السبنسة وجْهَتهم دمنهور، معلومة كانت غائبةً عنا عرفناها فوقَ سطح السبنسة أنَّ أغلب مَن يعتليها يكون فقط لمحطةٍ أو محافظة أخرى إلا القليل النادر من أصحاب البأس يكملون لآخر المشوار.

محطة دمنهور على الأبواب، هكذا نبَّأنا أحدُ الخبراء، وأنَّ علينا الاستعداد، ولا بدَّ أن يكون النزولُ قبل توقف القطار بالكلية والتشتُّت بينَ الناس عن أعين أمن محطة دمنهور الصعب «على حدِّ وصفه»،

مغامرةٌ أخرى تنتظرنا في المنتصف قبلَ العودة لتلك السبنسة، والتي لا أتخيَّل كيف سأعود إليها استكمالًا للمشوار إلى الإسكندرية! قاطعتُ ذلك التساؤل السابق لأوانِه، فواجبُ الوقت الآن الاستعدادُ للنزول دونَ ضرر، وبعدها يكون حديث آخر.

المباني بدأت في الطَّفو على السطح، من بعد وقتٍ طويل في الفضاء الخالي من الكُتل الخرسانية، تجمُّعات سكنية ثمَّ فاصلٌ من بقعة خضراءَ ثمَّ تجمُّعات أخرى استراحات وعَمَار متزايد، كلُّ تلك المشاهدات لقطاتٌ كأنها مُعادَة قبل بداية ونهاية أيِّ محافظة أو مدينة كبيرة يدخلها القطار، ومحطتُنا القادمة «دمنهور» كلما اقتربت زادَ سوادُ المباني والحياة، حتى أصبحتِ المحطة ذاتها على مرمى البصر.

دخلتِ القاطرة «العفريتة» برأسها إلى أوَّل رصيف المحطة ثمَّ أخذت طريقَها نحو آخره لتُسترَ عرباتها بصحبة الرصيف.

وقبلَ أن تسلم عربتنا نفسَها للرصيف إذا بالكُتل العالقة في مؤخرتها تتلافَظ من نفسها في كلِّ مكان في تدافع وهَرَج وأصوات تستعجل بعضَها وأخرى غاضبة، لم أميزْ منها غيرَ صوت «حازم» يتأوَّه بصوت عالٍ بعد سقوطه، وقدِ الْتَوت قدمُه تحته عندما قفزَ بشكل خاطئ نتيجةَ استعجال مَن هُم بالوراء، التواءٌ كشف عن حقيقته بأنه كسْر، خاصة بعد استحالة قدرة «حازم» على القيام من مرقدِ سقوطِه على أحجارٍ بين القضيبين، ومن صُراخه المدوّي، وهو المعروفُ بالبأس.

تحلَّقنا حوله بقلوبٍ مُضطربة ومساعدة آخرين واتِّباعًا لنصائحهم بسرعة نقله للمشفى.

حملناه إلي خارجِ المحطة بعد رؤية كسْر ساقه المضاعف، متوجهين به إلى مستشفى دمنهور العام في عجلةٍ أكبرَ من التي كنا نريد أن نذهب بها إلى الإسكندرية!

(3)

الغريب

نعم، طريقتُه كانت غريبة، لكنها لم تكن أبدًا مُزعجة، غرابتُه كانت حميميَّته الزائدة لشخصٍ يلتقيه لأوَّل مرة.

لعلَّه يتعامل بما يتمنَّى أن يتلقّاه هنا من مؤانسة وودٍّ وعزْوة؛ ذلك المسكين الغريب.

لهجتُه الريفية الخام دونَ شوائب سَكندرية تشي بقدومِه الطازج إلينا من صعيد بلادنا.

لكنَّه مع تلك الحميميَّة العامة لكلِّ رواد المقهى يتعامَل معي بشيء من الاستثناء والودِّ الزائد، ربما لوَداعة ملامِحي التي لا تردُّ مصاحبًا، أو لبَشْرتي السمراء التي تشبهُه، أعطته انْطباعًا بتوحُّد الأصل الصعيدي، ذلك الأصل الذي لا يُخطئه أحد.

طريقتُه تشعرني دائمًا بحَداثتي في ذلك المقهى، وأنه قديم هاهنا كصاحب بيتٍ يرحبُ بالزائرين رغمَ ظهوره فيه كعاملٍ من بضع أيام فقط.

أصبح يُناديني باسْمي مجرَّدًا بعدما عرفَه ذاتَ مرَّة وهو يقدم لي قهوتي المعتادة، أمرٌ لا يزعجني بالمرَّة، فطالما اعتقدتُّ أن أفضل ما يشرفُ به المرءُ هو اسمُه المجرَّد، وما في ذلك من ودٍّ وقرب، لكن هذه ليست طريقة تلك الفئة التي ترى في الألقاب احترامًا، بل واستجلابًا «للبقشيش».

ربَّما تقارب السنِّ بيننا وبساطتي رفعتْ عن عاتقه ذلك التكلف الذي يَسعى له من الأساس، ليَشعر ويُشعر مَن حوله بأنَّ له أصدقاء ومعارف، بدَا ذلك جليًّا من طريقة ترحيبِه عند كلِّ قدوم لي هنا وهو الذي أعرفُه من أيام قليلة يحاول دائمًا إظهارَ أن ثمة علاقةً وطيدة تربطنا، زاد ذلك عندما سألني عن سببِ عدم مجيئي بالأمس، وجلوسه على المقعدِ المقابل لي بعض الوقت قبل قيامه لإحضار الطلبات، فضلًا عن روتين استفساره السَّطحي عن الأحوال والعمل والبيت، ثمَّ انصرافه وهو يؤكدُ لي بأنه في الجوار إذا ما احتجتُ إلى شيء.

تماشَيت مع طريقته ومنحتُه بذكاءٍ ما شعرت أنه يتمنّاه، فلا ضررَ من إعطائه ما يريد إن كان ذلك يجبر بخاطرِه ويُشعره بالعزوة.

شعرتُ بمدى نجاحه فيما يرنو إليه عندما ذهبتُ فلم أجده، فقال لي صاحبُ المقهى الذي يربضُ دائمًا على مكتب محمَّل بكل أنتيكات الشيش القديمة:

- صاحبك مَجاش النهارده، أخذ راحته الأسبوعية اليوم.

في اليوم التالي..

عادَ من إجازته، لكنَّه لم يكن كعادته بالترحيب وكثرةِ الحديث، بل كان يتوارَى عن الأنظار وعنّي بشكل خاصّ، ولم يسألني عمّا أريد، وأتى عاملُ الصالة القديم يسألني.

ترددتُّ في أن أناديه وأطمئنَّ عليه، وقلتُ في نفسي ليس ثمَّة صداقة من الأساس، كلُّ ذلك كان مفتعلًا، ومِن أجله، وبما أنه لم

يسلِّم ولم يأتِ؛ لن أحدثه.

لكنْ سرعانَ ما انتقدتُّ أنانيتي وكَسَلي المعتاد في الوصل الذي يعتمدُ دائمًا على إيجابيةِ الآخر ومُبادرته لي.

على مَضض ضغطتُّ على نفسي وحافزي لعلَّ ضررًا أصابه فأخفِّف عنه.

فإذا به يتلكَّأ في الاستجابة لندائي، ويشير بيدِه بالصبر حتى ينتهي ممّا في يديه من تَحضير الشيش وتغيير الحجَر والولعة -وهو ما رأيته يفعلُه لأوَّل مرةٍ- منذ قدومه مَقهانا قرابةَ الأسبوع بعدما كان مسئولَ طلبات الصالة.

أتى إليَّ بعد وقتٍ كنت قد نسيتُ أمرَه، أتى بتشريحِ جسدي يوضح تعجلَه نصفه الأسفل مستعدًّا للذهاب، لم يتوجَّه قبلي إلا بوجْه بائس يتحدثُ في عجلةٍ بانصرافٍ عني:

- لو ها تفضَل قاعد لميعاد تسليمي الوَردية هاقعد معاك اتْكلم.

لم يكن في خطتي اليوم المكوثُ لتلك الساعة المتأخرة التي ينهي فيها ورديتَه، لكن استكمالًا لمبدأ جبرِ الخاطر قررتُ الانتظارَ، لا سيَّما أن ملامحَ وجهه تُظهر أنَّ شيئًا ما قد ألمَّ به.

انتظرتُ وانتظرت وأنا أخاطبُ نفسي المَلولة بكلِّ معاني الإنسانية الراقية، وأنَّ الوقت الذي وهبتُه لإعانة إنسانًا لا يعدُّ وقتًا ضائعًا، وأنَّ عليَّ أن أرخي قسمات وجهي التي اكتست بالضَّجر مادمت نويت انتظارَه، فلا يجب أن أهدرَ كلَّ ذلك بطلَّةٍ عابثة على ذلك المسكين.

مرَّ الوقت، أخيرًا أتى موعدُ إخلاء سبيله ليكون مواطنًا كاملَ الأهليَّة بأن يجلس على مقعدٍ ويطلب مشروبَه.

دونَ مقدمات واهيةٍ لا يحتملها الوقتُ بادرته:

- ما لك؟

- الشغل هِنا ها يروح منّي؟

- يروح منّك ليه؟ (ثمَّ أردفت) أنتَ ما شاء الله قايم بشغلك كويس وعامل حالة حلوة.

- أنا كنت شغّال مؤقتًا عشان عامل الصالة كان تَعبان وقريبي اللّي جبني هنا البواب اللّي جنب القهوة قالّي إنه مش هايجي تاني لأنه كان زعلان مع صاحب القهوة بسبب اليومية كان عايزها تزيد، ودلوقتِ هوّ رجع تاني، وهوّ له أولوية عند المعلم لأنه شغّال معاه من زمان، وأنا رُحت للشيشة بيجرّبوني عشان بتاع الشيشة المسائي عايز يمشي هايفتح مصلحة لوحده.

- طيب فين المشكلة! ما أنتَ شغّال أهو في الشيشة أحسن من كل شوية رايح جاي بطلبات.

- لا طبعًا، ريّس الصالة مش زيّ الشياشجي، ريس الصالة بياخد بقشيش وله سُلطة في المكان على بتاع الشيشة، وأحيانًا على النَّصبجي اللّي بيعمل الطلبات، وبيدّيهم شيء من البقشيش بمزاجه.

في هذه الأثناء شردتُّ عنه قليلًا أتدبَّر في أحلام بني فئتِه البسيطة من أرباب تلك المهنة، وأقول في نفسي أيضًا للشقاء الأدنى

درجات، ولمَ لا.. إن كان هناك الدَّرك الأسفل من النار، لكنّني تداركتُ نفسي وعدتُّ إليه سريعًا أسأله:

- طيب ما تفضَل في الشيشة لحدّ ما ربنا يكرم أو شوف مكان تاني.

- الشيشة شَقا على الفاضي، وليها صَنعة مش عندي، أنا أوّل يوم النهارده بيجرَّبوني وضربت لخْمَة كتير، وبوَّظت كام حجر، أصلًا مُمكن يمشّوني لو ما ظبطّش الكلام، كمان أنا صعيدي دمي حامي ومَسئولية الصالة كانت عَطياني وضْعي شوية، وأيّ مكان جديد هاروحه مش هاينفع أكون ماسكِ الصالة لأنّي معرفش حدّ فيه؛ اللّي بيمسكها الأقدم اللّي فاهم الناس وعارف طلباتهم، ويعرف يحلّ أيّ مشكلة، والفرصة اللّي جاتلي هنا كانت صدفة، وصعب تجيلي تاني وأنا غريب مش من هنا، أنا قناوي نازل هنا آكُل عيش.

- إن شاء الله مش هاتمشي واصْبر بسّ شوية ومتنساش إنك جاي غريب على ناس قديمة مع الوقت الدنيا هاتتظبط معاك.

كلمات روتينية أنهيتُ بها الحديثِ وأنا على غير قناعةٍ بها، أين «الأملة» التي يخاف أن يتركها! يتعامل مع شقاء المقهى على أنه جنة يخاف أن يُطرَد منها! حمدتُّ الله على وظيفتي الثابته ومشكلاتها التافهة مقارنةً بمشكلة هذا المسكين في عمله المتواضع، ويوميتِه التي إن غاب يومًا لمرض أو حاجة قُطعت عنه.

جاء يومٌ جديد من أيامي على المقهى، لكنني شعرت بثمةَ رباطٍ أصبح يربطُني بذلك المكان تعدَّى كوْنه جلسةَ استرخاء على مقاعد

خشبية جامدة، ووقتًا للهدوء على ضوضاءِ ذلك المقهي البلدي، أصبح لي قصة أتابع تطورَها، وكائنًا قد شغلني حالُه البائس.

تفهَّمت من حديثه بالأمس أنه لم يعدْ يمتلك رفاهية الحديث مع الزبائن والمكوثِ الطويل، عذرت انشغالَه اليوم، وطريقتَه التي أصبحت مبررةً لكنني كنت أرمقه من بعيدٍ أتابع تحركاتِه وأشاهد طريقتَه المفتعَلة وهو يسحب من الشيشة قبل أن يهديها لطالبها، ثمَّ يشيح بوجهه لينفس عن سعالِه المكتوم، شاهدتُّه وهو يبالغ بحركة يدِه الترددية ممسكًا بمروحةٍ كي يحافظ على الفحم المشتعل ثمَّ يذهب في ركنٍ مخفيّ ليبسط يدَه ذات العروق المنتخفة لتستريح قليلًا.

ظللتُ على ذلك أتأمَّله خفية، وكلما التقت أعيننا «قدرًا» أتعمَّد إظهارَ عدم رؤيتي له حتى لا أزيد من تحرجه، يكفيه عينُ ذلك «المعلم» البَدين الذي لا يحمل على رأسه همًّا سوى حفظ كلمة مرور «الواي فاي» التي تتغير كلَّ يوم، يرفض أن يمنحَها أيًّا من عمال المقهى للزبائن؛ لا بدَّ أن تذهب إليه طالبًا، فيدَّعي هو عدم سماع الطلب ليستجيبَ في المرة الثانية أو الثالثة، بملامح تعلوها المنَّة، منحٌ يُشعره بقدرِه، خاصَّة أن مَن يقفون أمامه أولئك الشباب الذين طالما وصفهم بالضياع وعدمِ احترام الكبير، فجاءت فرصتُه لكسر أنوفهم بالطلب عند ضريح مكتبه.

مازلت أراقبُه وأشفق على طريقتِه الملهوفة، وسرعته عند كل نداءٍ وأنا ألعنُ الحاجَة والعمل والجنيهات.

ظلَّ الحال كذلك حتى استدعاه من آخر الصالة مناد بصوت أجشَّ ليرفعَ له الولعة التي تساقطت على الأرض، فإذا به يُهرول، خاصةً أن الواقعة بجوار مكتب عرش المعلم، ليلتقط تلك الجمرات المتوهجة بيدِه بحركات سريعة، نظر بعدها رافعًا رأسه بابتسامة نصرٍ للمعلم، والذي بدوره أومأ برأسه المُثقل برقم «الواي فاي» هزةَ رضًا وقبول.

ظلتْ عدسات عيني تتابع ذلك المسكين حتى رصدت انكماشَ وجهه كأنه يغلق ملامحَه على آهةٍ مكتومة، وتألم يسّاقط للداخل بدلًا من أن يصدحَ به خارجا فيعلو صدره ويهبط ببطء.

يرددُ مع «شيبة» (آه لو لعبت يا زهر)، يتراقص في ردهاتِ المقهى رقصةَ المذبوح ليُخفي بها ذبحته.

يستسلمُ لثوان لحقيقة ما به فيبدو مُثخنًا مَحمومًا فيتذكر أن ذلك لا يليق به فيبتسم ابتسامةً بَلهاء عريضة دون سبب ويهرول دون حاجة. ذهبت إليه وأنا في طريقي للحمّام الذي يقطن بجوار محرقة الفحم، سألته:

- أنا حاسس إنّ ايدك اتحرقتْ! ليه مجبْتش ماشَة تشيل بيها الفحم؟!

فكان ردُّه السريع بالنَّفي وكأنها تهمةٌ أو سبَّة أن يشعرَ بالوجع أو أن تُصاب يده.

- لا.. لا، مفيش حاجة، بُكره جلدي هايموت زيّ الشياشجي اللي فات، ماينفعش الولعَة في الأرض وأجري أجيب ماشَة يبقى أنا مش صَنايعي لو في إيدي ماشَة كان ماشي.

بسّ أنا تمام.. تمام.

قالَها وهو يضمُّ يدَه يرفض أن أراها، ثمَّ انصرف سريعًا متعللًا بنداء الزبائن.

أخذ يدور في صَحن المقهي بشكل مبالَغ فيه يعكس مدى الألم الذي يحاول إخفاءه، وتلك اليد التي يقبضُ عليها لا يريد حتى فتحَها لعينه حتى لا يضعف من رؤية جرحه.

الوقت يمرُّ. جرحه الذي لم نرَه يشعل يدَه أكثر، وجسدُه يحتاج إلى الراحة وهو يقابل ذلك بالعندِ والتنكُّر من توسُّل الألم.

مازال كذلك حتى اصطدمَ بحَركته الهوْجاء بنَادل الصالة فوقع ما يحمله من مشروباتٍ ساخنة على يده التي يقبض عليها ليقع على الأرض كالمَصروع وهو يتأوَّه بكلِّ الألم المكتوم والآهات المؤجلة بشكلٍ هيستيري وهو يبسط كفَّ يده المُصابة على مصرعِه ليكشف عن هوَّة حمراء غائرة.

تكاد تصلُ إلى عظم ظَهر يده دُفنت فيها كلُّ رووسنا المنكَّسة وهي تنظرُ بأعين شاخصة وأبدان مقشعرَّة على جرح عَوَزه، نمدُّ أيدينا جميعًا نُلملمه من الأرض لنجلسَه، فإذا بصوت «المعلم» الذي لم يبرحْ مكتبَه حتى اللحظة يقرع آذاننا وهو يقول:

- كلّ واحد في مكانه يا حضرات، بلاش اللمّة الكدابة .

لينهض بعدها في تراخٍ قابضًا يدَه على بعض النقود ليلقيها على طاولةِ ذلك المسكين فورَ وصوله لمقعده، وهو يتمتم:

- دا حسابَك عندنا.

ثمَّ توجَّه لأ حد عُمّاله بالجوار:

- منعم .. خدِ الواد دا وصَّله لبيته وهتلِنا في إيدك وانتَ جاي شياشجي يكون ولد جدَع ويسدّ.

بينما «شيبة» يصيح من خلفه عبر مكبرات صوت المقهى متأثرًا:

- ملعون أبوك يا فقر يا حاوجني للأندال.. ذلّيت عزيز النَّفس عشان عديمِ المال.

(4)

سَكَن

أصبحتُ أتَّخذ الطريقَ الخلفي لمنزلي أتكبَّد مشوارًا أطولَ عن طريقي المُباشر المعتاد، لكنه رهق مريحٌ عن تلك المقابلة الثقيلة لهذا المسنِّ والحديث الممِلّ والمُكاتبات التي لا جدوى لها سوى أنها صبرُ ذلك الرجل، مممم «صبر ذلك الرجل»!

لقد اعترفتُ بنفسي، هو يتصبَّر بها، وأمله الوحيد في النجدة إذا هو مَعذور، ولكن لماذا.أتحمَّل وحدي ما يتقوَّت به صبره.. لماذا لا يعي أنَّ لكل إنسانٍ احتمالًا وطاقة، وقد نفدت طاقتي وابداعي في كلِّ صيَغ المناشدات والتوسُّلات دون جدوى، لعلَّ طريقتي هي السببُ في عدم ردِّ المسئولين عليه، وإن كان الأمرُ كذلك من قبل خطابي الأخير الذي زادت فيه حدةُ مُخاطبتي للمسئول، وتجاوزي اللفظي لقد زدتُّ الطين بلَّة.

لا أعلمُ لماذا فعلت هذا! هل غضبًا من هذا المسنِّ أو ذلك المسئول؟

على أيَّة حال حدثَ ما حدث، لعلَّهم لا يقرؤون الخطابات من الأساس يمزِّقونَها عندما يتبيَّن لهم من مَطلعها أنها طلبٌ للسكن.

لكن هل اتِّخاذي للطريق الخلفي هروبًا من المواقف كما تتهمني زوجتي دومًا هو الحل؟

لكن كيف لي أن أمرَّ من أمام الرجل، وعشَّته الخشبية، ولا أنخفض لِندائه.. كيف؟، هل هذا هو الحسمُ المطلوب كي أكون حاسمًا

وأتخلَّص من عيب التهرب؟!.

لا أعلم، لكن ما اتَّخذته هو ما يُريحني.

ما أجملَ الهروب إن كان الخيارُ الآخرُ هو ردَّ الناس وكسرَهم.

مسكينٌ هو رغم ثقله عليّ، قد غرَّه مَظهري الأنيق من الخارج وقلمي المُطلّ من شرفة جيبِ بذلتي الرسمية، فأنا الافندي الوحيد على حدِّ قولِه لحارتنا البسيطة.

طلبُه مشروعٌ وحقٌّ أن تكون له حجرة تكفي أبعادَ جسدِه الضئيل، لها سقفٌ شَهم يتحمل المسئولية لا يُسلمه للسماء، يحمية من زخّات المطر عن تلك العشَّة التي خانته فرجاتُ خشباتِها مع قطرات المطر فسمحت لها بالعبور إلى جسدِه الواهن المهشَّم من ركلات الزمن.

مرَّت أيام وأيام. رُفع عن كاهلي فيها عبءُ الرجل وإن كان أمرُه في رأسي لا يَبرحني كعادتي دائمًا رأسي لا تتوقف طواحينُه، كل مهملٍ في الحياة له أهميةٌ في ردْهات عقلي كلّ كلمة ألقاها صاحبُها دون بال أحتفظُ له بها في جيوبِ ذاكرتي، بل وأصوتُها له من التلف بإعادة تدويرها وتأويلها.

مرتْ أيام لا أتذكرها، كانت كلُّ علاقتي بالرجل أنني أرمق عشتَه بنظرةٍ مَسروقة من بعيد من شارعٍ عمودي مزروعٍ في خاصرةِ طريق العشَّة، والطريق المُوازي له الذي أتمشّاه لمنزلي.

نظرةٌ بعيدة اعتدتُ أن ألقيها لعلّي في مرةٍ لا أجد العشة فأعلمُ بذلك أن الرجلَ قد سكن، ظللتُ كذلك حتى اليوم الذي تغيَّرت فيه

بعضُ تفاصيل الصورة في عيني.

جمعٌ غفير حول عشة المُسن، وأضواءٌ تخطف البصرَ منبعُها أجهزة الإنذار والتنبيهِ العلويةُ لعربات الشرطة.

تسمَّرتُ لبرهة أتساءل في نفسي.. ما الذي حدث، هل استجابوا للرجل؟

لا.. لا، الاستجابةُ لا تكون بهكذا طريقة! يكفيهم مندوب من الحي بخطابٍ رسمي، وللاحتفال برئيس الحي تكون صورٌ في مقرِّ الحي معَ المواطن المُختار لتطبيق حقوق الإنسان.

إذًا ما الأمر؟

لا بدَّ أنهم أتوا للقبضِ عليه بسبب طريقةِ الخطاب الأخير الذي تجاوزتُ فيه ونعتُّهم بعدم الرحمة.

انتظرتُ قليلًا وأنا أراقبُ من بعيدٍ والمشهد هوَ هو؛ الزحام يزداد،

أقول في نفسي..

إنْ كان المحفلُ للقبض عليه فلماذا كلُّ هذا الانتظار والجلبة؟! هذه ليست طريقةً للقبض عليه، ولماذا أصلًا يقبضون عليه؟ ما قاله هو مجردُ تَنفيس من مواطنٍ معدوم، إن أزعجَهم تنفُّسه فيكفيهم إهمالُ طلبه.

***

بعد ترددٍ وحيرة قررتُ المضيَّ قُدمًا لاستقصاء الخبر في ثوانٍ

معدودة، خيرٌ من حيرةٍ ستلازمني طوال الليل، والعديد من التصورات، هكذا أنا مع كلِّ مجهول، وهكذا تعظيمي لكل صغير.

ذهبتُ نحو الجمع بقدمٍ مُثقل، وقُبيلَ الوصول بدا ليَ اليقينُ من بعض العائدين يهمْهِمون أنَّ الرجل قد سكن!

اقتربتُ أكثر حتى التحمتُ بالجموع، فكانت التفاصيل؛ قد رحلَ الرجل منذ أيام حتى تعفَّن جسدُه! وقد حضرت الشرطة لمعاينة الجثة والكشف إن كان هناك ثمَّة سببٌ جنائي، أما الأهالي «الرحماء» قد تجمَّعوا حول عشتِه ككعبة نجاةٍ يَتبارون فيما بينهم مَن ينال شرفَ دفنِ الجثة في مقابر عائلتِه الخاصَّة حتى يظفرَ بثواب إكرامه «فإكرام الميت دفنه».

كانتِ العديدُ من المقابر يعرضُها أصحابُها لإيواء الميت.. كان يحتاج منها واحدةً فقط كي لا يموت.

(5)

أن تكونَ كلبًا

صخبٌ وأضواء وألعابٌ نارية، يشعر أنَّ خصوصيتَه تنتهك، قد أظهرتِ الزيناتُ المضيئة من حوله عوراتِ عَوَزه، بل أظهرته لنفسه.

على الرغم من تواجدِه الدائم ليلًا هاهنا، إلا إنَّ الإضاءة الشديدة أظهرتْ له حقيقة ما كان يُخفيه عنه ظلامُ الليل، أو كان يخفيه هو عن نفسِه بأن جعل ستائرَ الليل موعدًا لرحلة نبشِه عن طعام يتقوت به بينَ أكياس القمامة السوداء في مقلبِه المعتاد، وفي النهار قابع في جحرِه الآمن داخلَ عربات القطارات المتهالكة، هربًا من الوحوش التي تُلقيه بالحجرة وتنالُ من جسده بالعصي.

بدَا الآن واضحًا بكل تفاصيله، رأى نفسَه بما لم يرَها من قبل في ضوءِ النهار؛ إنَّه يُشبه كثيرًا ببعثرته تلك الأكياسَ المبقورة، لحيته الكثَّة المشعثة تشبه مُجمل مساحة مقلبِ القامة بأكياسه السوداء، ملابسُه الممزَّقة والمرقَّعة تشبهُ أيضًا وعاءًا من القمامة مخروقًا قد أباحَ عمّا بداخله من متفرقاتٍ تجمَّعت تحت بند القاذورات.

عرفَ أيضًا مصدرَ الأصوات التي تتنامى من وقتٍ لآخر إلى مسمعه وقت نبشَه.. إنها لفئرانٍ جائعة تشاركه البحثَ عن طعام.

لأوَّل مرةٍ يشعر أنه مُستباح للأعين المارة من المتقززين من مظهره، وإن كان لا يعلم التقززَ لكنه يشعرُه من طريقتهم تجاهه.

نظراتُهم وتسلُّط الأضواء عليه جعله عازفًا عن عمله، جعلَه

يرفع عينَه المكسورة على القمامة دومًا وينظر للأنام مِن حوله، يتفحص البِنايات والمارَّةَ كأنه للتَّو يُبصر ما يحاط به، لا يعلم لنفسه جنسًا، يشبه بعضَ الشيء تلك الكائنات المارَّة أمامه، يشبه أولئك المتحكمين في كلِّ شيء؛ مَن يقودون السيارات ويجلسون على المقاهي تقدَّم لهم المشروبات دون جهدٍ أو عناء، يُشبه مَن يأكلون دونَ نبش، ويُشبه من يلقونَ حوله بالأكياس، لكن لا يُتاح له ما هو لهم.

ربَّما لاختلافه عنهم في بعض الأشياء؛ فهو ذو هيئةٍ رثَّة، وملامح غيرِ مرتَّبة، ورائحة يطبقون أنوفَهم عنها عندَ مرورهم به، بينما هو لا يشعر تجاهَها بالغضاضة.

يُشبههم ولا يشبههم! لا يعلم لنفسه كُنة أو انتماء!

أخذ ينظر أكثرَ فأكثر، يدقق بصرَه نحو مصدر الصوت العالي، وسبب تلك الأضواء والصخب.

مكانٌ قديم بزيٍّ جديد وواجهة متغيِّرة، وزينة تحيطُه، وتجمعات حوله لم تكن تجتمع أمامه من قبل.

سياراتٌ فارهة تقف لينزل ما بها ثمَّ يلجونَ ذلك المتجر الجديد، كل الوافدين على اختلافهم قد تَشابهوا في اصطحابهم لكلاب في أيديهم، يدخلونَ بها ويخرجون جميعًا من الداخل بعبوات أنيقة يفتحون ما بها في الخارج لتأكلَه الكلاب، حتى تحوَّل محيطُ المتجر في وقت يسير إلى مائدةٍ كبيرة للكلاب، يخدم عليهم مَن يصطحبونهم من البشر، إنها هدايا ودعايا افتتاح متجرٍ فارِهٍ لطعام

الحيوانات الأليفة.

أخذ ينظرُ وينظر، يرى في نفسه رغمَ هيئته وحاله في درجة أعلى مِن تلك الحيوانات التي يُقدم لها الطعام بشكله الأنيق، يبتسم وجهه بعشوائية، يصفقُ بحرارة لنفسه، ويقرر أن يذهبَ ليأخذ نصيبَه من الهدايا، بل نصيبًا أكبر، لا لشيء سوى لشعورِه بذاته وأنَّه مميز بطريقةٍ أو أخرى عن تلك الكائنات التي تسير على أربع.

يقتربُ من المتجر كصندوق قمامةٍ كبير متحرك، يندفع نحو باب المَتجر بثقة، ما إن تجاوز البابَ ورآه مَن بالداخل حتى علت الأصوات تستنجد أصحابَ المكان بالتدخُّل لطرده على الفور قد شاركتهم كلابُهم الامتعاض فأخذت تنبح بهَياج شديد لخروجه، حتى حضرَ لنَجدهتهم كلُّ أصحاب وعمال المتجر فأصبحوا أمامه للتَّو يدفعونه بأيديهم بقوة، ويركلونه بعنف، ليكون في ثوان معدودة ملقًى بالخارج...

يقوم ويعاود الكرَّة مرَّة أخرى فيكون التعامل بأشدّ غلظةً وقوة وعنف يدمي بعضَ أجزاء من جسده.

يبتعدُ قليلًا وقد سحقتْ بقعٌ من جسده نتيجة سحله على الأرض.

يفكرُ لماذا هو وحدَه الممنوع من الولوج، يفكر.. ويفكر حتى اهتدى لسببِ منعِه؛ هو جنسُه المختلف عن روّاد ذلك المتجر، ومَن يحظون بالطعام المعلَّب. ابتسمَ مرَّة أخرى رغم جروحه وآلامه وذهب مرةً ثالثة وهو على يقينٍ بالولوج، وقبيلَ اقترابه من الباب وقبل أن يضربوه كالمرَّتين السابقتين؛ نزلَ على ركبتيه، ووضع كفيه على

الأرض وأخذ يَمشي المسافةَ المتبقية له على أربعٍ وهو يعلي صوته بالنّباح كي يثبت لهم حقيقتَه الجديدة المستحقَّة للرفق والطعام!

(6)

حواديت محليةُ الصّنع

لا أتخيَّل أنّني سأفتقد حديثَه، لا بدَّ أن أحافظ على موعد شهري أو نصفِ شهري للجلوس معه.

أجاورُه في الشارع منذ ولادتي لكنني لم أعرفْه سوى عند حاجتي له كي أكملَ مشروعي الأدبي.

لن أحتاج أكثرَ من جلستين أو ثلاثة على أكثرِ تقدير لأكمل ما أريد، واليوم واحدةٌ منهم، لكنني أصبحت أشعرُ بحاجتي للقاء أكثرَ من أي يوم مضى.

قد باتَ جلوسي معه سلوًى، وحواديته التي أسمعها كنوعٍ من أخبار «السرسجيَّة « صارَ لي فيها عبرة وتعلم، ضحكاته التي لا تتوقف وهو الذي تركلُه الحياة في كل بقعةٍ من جسده جعلتني أستحي.. أحزاني التي تُثار بمجرد كلمات عابرة واختلافات في الرأي، مقدرته على الحديث والمعايشة وهو الذي لا يستطيع أن يؤمِّنَ لنفسه قوتَ اليوم، فضلًا عن الغد، جعلتني أستصغرُ خَوفي وقلقي على المستقبل البعيد، وأنا مستقرٌّ في عمل، ومطلوب في آخر.

شعورُه بالأمان رغم إحاطتِه بالخطر الحقيقي من قضايا مطلوب على ذمَّتها وتوعدات له بالضربِ من أشقياء لهم عندَه قصاص، جعلني لا أحترمُ قلقي الذي صنعتُه من خيال كاذبٍ وظنٍّ واهٍ.

قاطعت ذلك.

عليَّ الآنَ التوقفُ عن التدبُّر والتنظير الذاتي، لا بدَّ أن أصل إليه قبل أن يأتيني هو كالعادة، على الأقلّ اعترافًا بما ذكرت في نفسي، من أن لقاءه باتَ محببًا لي وملطفًا عن حالي، لا ينبغي أن أستمتع دائمًا بامْتنانه لجلوسي معه، لا بدَّ أن أضع الأمور في نصابها ولو لمرَّة واحدةٍ أنّني أنا المستفيدُ الأكبر من حواديته وقصصِ الشارع الذي أسكنُه وأغفله، لا بدَّ أن أعلمَه ذلك بدلًا من استماعي لوصلةِ مدحِه المكرَّرة على ذكري له في كتابٍ لا يعلم عنه شيئًا، ولا يعلم بأيِّ شيء سيُذكر..

«بورصة أبناء جهينة»

بينما أنتظرُه فإذا بجَلبته تسبقُه لأذني لأجدَه بجانبي للتَّو..

فسبقتُه بالحديث:

- بكتيريا، جيت قبلك أهو النهارده، أيّ خدمة.

- حصل يا صديقي.

- بسّ أنت عارف ليه أنا جيت قبلَك؟

بنظرةِ المتفقه، وبسرعة الواثق أجابني:

- أكيد كنت في مِشوار قريّب م القهوة فقلت بدَل ماتطلع وتنزل يعني.

- لأ. أنا جيت بَدري عشان مستعجل أشوفك واسْمعك واقعد معاك، وبصراحة قعدتك بتغيّر مزاجي، أنتَ بقى بتستفيد إيه؟ بشوفك مُهتم قوي، وجاي فرحان.

«بفرحةٍ مكبوتة بفعل اعتقادِه أنَّ ذلك لا يليق، تحدث»:

- بصراحة، أنا ظابط نفسي اليومين دول بقَعدتي معاك من ساعة ما طلعت في القناة بتاع الثقافة واتفرَّجنا عليك عند قهوة المستخبي لما ابن عمَّك قالّنا وأنا فرحان بيك، فلمّا كلّ شوية ترنّ عليّ أو تعدّي ونمشي مع بعض بتظبط بيك قوي، وبحسّ إنى فَخور إنّي عارف ناس نضيفة، كمان كنت عايز أعمل معاك واجب في أيّ حاجة وأنت مش مخصم مع حدّ، ولا لك مشاكل أدخَّلك فيها، فلمّا قلتلي بتكتب كتاب ومحتاج حواديت شعبيّة وحوارات ومشاكل الشارع؛ قلت أنتَ جيت في ملعبي وأنا عايز أوجّب معاك. هوّ صح الكتاب كنت قايل اسمُه حدوتة كدا باين واللّا إيه؟!

- حواديت محليّة الصُّنع.

«بتَماهٍ معي حتى لا يزعجني بطلبِ توضيح »:

- آاه تمام، مع إنّه مش قاري قوي معايا الاسم، بسّ ماشي.

- أنت دايمًا بتستخدم كلمة القراية مع إنك مش بتعرف تقرا.. صحّ؟ يعنى بتقولّي دايما قرّيني عايز إيه.. وأنا قريت الحوار بتاعك.

- لا بعرف، بسّ أنتَ بتقرا بطريقتك وأنا بطريقتي، بسّ هي الكتابة اللّي ليها طريقة واحدة بصراحة وأنا مش بعرف أكتب.

- آاااه، ماقولتليش حوارك مع أمّ ناجي، وليه المشكلة الكبيرة اللي عملتَها معاها وضربت جوزها.

«بعدَ طلبِه الصلاةَ على النبي كمُفتتح يَشي بحوار طويلٍ بدأ يقص

:»

- بصّ، أنا والله مابجيش على حدّ من منطقتي، بسّ هي حطيتنى في حوار عِزَّة بصراحة أنا متحطش فيه.

أنا سمعت إنها بتبيع حاجات قسط، وكنت عايز موبايل مِ الكبير أبو لا مؤاخذة قامرة.

بدعابةٍ قاطعتُه:

- وليه لا مؤاخذة! الكاميرا شيء حلو مش قلة أدب.

- وربنا ماعرْف همّا بيقولوها كدا.

المهمّ طلبت معايا بالليل أروح عشان أقولّها ع التلفون التّاتش أبو قامرة، وأنا راجل شغّال وهدفع لها، يعني مش هاكلها، روحت لا مؤاخذة خبَّطت بالليل على الشُّوباك وأنا والله واقف يعني بعيد شوية، المهمّ محدّش ردّ، قمت خبَّطت جامد وأنا بنادي عليهم، وزَغَدت الشُّوباك راح اتْفتح، المهمّ لقيتْها بتصوَّت وتقول بكتيريا بيتعدَّى علينا مِ الشُّوباك، وجوزها كان بالحمّلات، سخَّنته وتقوله بكتيريا بيبصّ على عرْضك م الشُّوباك، راح طلعلي بسكّينة، أنا بصراحة ماكنتش عايز أعاركُه بسّ لقيتُه بيقولي إلّا مراتي وبيتَّهمني في حوار عزَّة أنا مش بحبُّه ولا هو ولا السرقة، روحت مسكت فيه وعوَّرته!

- بسّ يعنى يا بكتيريا ماكنتش تقدَر تستنَّى لحدّ بكره وتكلمها، بدل ما تروح تفتح عليهم لا مؤاخذة الشِّباك، ويا عالم أبو ناجي

كان بيعمل إيه! المهمّ حاولوا تتصالحوا أنتم جيران برضو. بسّ أنتَ بتقول مش بتحب حدّ يتهمك لا بسرقة ولا بإنك بتتعدى أو تعاكس ستّ، هو أنتَ عمرك ما عملت كدا أصلًا؟ دا أنت كلّ يوم في خناقة.

«بعدَ سكتة بسيطة أتبعها بأنَّ «الكدب خيبة « أردف «:

- لا عملت، بسّ أقصد عمري ما عاكست واحدة م الشارع ولا المنطقة، إزّاي! دا أنا أموت عشانها وربنا، كمان معلش يعني لما آجي أعمل كدا هابصّ على أم ناجي.. دا ناجي ابنها فيه أنوثة عنها.. مع احترامي يعني.

- لا احترامَك إيه! أنتَ خلاص هزَّقت الناس، طب وحوار السرقة؟

- دي ندالة. لا أنا مش بمدّ إيدي على حاجة حدّ، أنا آه بتعارك.. أبيع حتّة حشيش، ومش دايمًا عشان عايز أأكّل البتّ تسنيم من الحلال، لكن السرقة لأ.

- ما السرقة زيّ الحشيش يا بكتيريا!

«بتنظيرِ مَن أتت له فرصةٌ لكشف علمه وفهمه، قال «:

- لا مش زيّه خالص. الحشيش بييجي الشاب يشتري منّي بالرضا، ومش ببيع عافية، إنما السرقه خيانة. بسّ ربّك والحق عملتها مرّة ومِن ساعتها مش بعملها، أنا كنت برجّع أول مافتكرها.

- بترجّع إزاي يعني؟!

«بعينٍ جاحظة وتمعُّر كتعبيرٍ عن حالة التقيُّئ، قال»:

- آاه بستفرغ اللّي جوّايا، الحوار دا حصل إزّاي بقى هاقولك بسّ إوعى تحطّه في الكتاب، عشان البتّ تسنيم لما تكبر.. ها أنتَ قلت هاتكتبني فيه جدَع وبتاع، بصّ فاكر أيام لمّا كارفون افتتح، كان فيه حوار مَشهور قوي قالّنا عليه الواد بعجر. قالّنا بنروح هناك وبناكل عادي حاجات حلوة وشكولاته من الغالية وكدا وعصير ومحدش بيكلّم، أصلِ المفروض بقى إيه.. إننا ناخد الغلاف بتاع الحاجات دي نروح بيه عندِ اللي بيحاسب وندفَع، بسّ إحنا كنّا بنرميه من غير ما حدّ يشوفنا، بسّ عملتها مرَّة وخلاص، ورحت لشيخ قالي الحاجات دي هاتكون نار في معدتك، وفعلًا والله كانت معدتي توجعني وماتهداش غير لمّا أرجع وأحطّ صُباعي في بوقّي وأجيب اللي في بطني وقعدتّ على كدا كتير.

- طب دلوقتِ عادي يعني مش بتحتاج ترجَّع؟

«مُقبِّلًا بطنَ يده وظهرها »:

- لا خلاص، أنا سددتٌ اللّي عليّا عند الخالق، رجَّعت كتير وكدا خلاص.

***

في هذه الأثناء، وعلى وقْع خلفية حكيِه، شردَ ذهني بعيدًا بعيدًا، بينما هو يحكي ويحكي من هنا وهناك دون مللٍ أو توقف.

أخذت أفكر.. كم من سرقة كبيرةٍ صاحبُها لا يتأذَّى منها ولم يسددها حتَّى الآن! وكم من واعٍ ومتعلِّم لا يدركُ خسةَ السرقة كما يعيَها «بكتيريا».

عدتُّ أدراجي إليه لأقاطعَه عن ابنته تسنيم:

- نفسك تسنيم تطلع إيه؟

على وقع هذا السؤال تغيَّرت نبرةُ صوته الأجشّ لتحنو وكأنني جئت على ضعفه ولينه:

- تسنينم دي حبيبتي، كلّ يوم تستنّاني عشان الحاجات الحلوة، أنا نفسي تبقى دكتورة، بسّ دا هاينفع! يعني أنا مش متعلم ولا أمها!

- ليه ماينفعش؟ كلّ شيء ينفع، ربّيها إنها تحبّ العلم، وقولها يا دكتورة من وهيَّ صغيرة، ما أنا أبويا مش متعلم ولا أمي، دي مَخلوق جديد لسّه كل شيء ينفع فيه.

- آاه صح، لسّه مستغْبِتش زيّ أبوها، لسّه بورقتها على حطة اللّي خلقها، وكلّ صَنعته حلوة إنّما إحنا اللي بنبوَّظ الصنعة دي.

- الله الله! عارف يا بكتيريا أنتَ قلت معنى كبير قوي، فعلًا دي فطرة ربّنا إحنا اللي بنشوهّها.

- بصراحة ساعات مش بفهمك يا باش مهندس لمّا بتتكلم كلام عربي، الفطرة وكدا... أنت بتقرا عربي حلو قوي بسّ مش بفهمه.

- أنا بقرا حلو متأكد، أنا امْبارح كنت في ندوة بقول قصّة فكان في حدّ بيسمعها فقالي إنّي باقرا غلط ومحتاج أظَّبط النحو.

- لا لا.. بتقرا حلو والله، دا تلاقيه لا مؤاخذة متغاظ، بسّ أنت تمام يا باش مهندس، أنا حتى مش بفهمك والله.

- بس أنا مش مهندس!

- إزّاي بس! أنت وربنا ما عارف قيمة نفسك يا هندسة، وربنا أنت أكبر كمان.

- وربنا أنت فلّ يا بكتيريا. كنت عايز أسألك سؤال من زمان، أنت جسمَك رفيّع قوي وهفتان، وكلّ يوم عاركة، وتضرب واحد وساعات بتنضرب، بسّ أنت يعني شبح المنطقة.

- لا ما هي مش بالجسم، هيّ قلب وعقل، أنا اللّي هافهمك يا هندسة يعني.

- قلب وعقل فعلّا إزاي بقى؟

- آاااه، هي قلب، أنا قلبي جامد، فبدخل بغَشامة فبعوَّض نقص جسمي، والتاني بيخافني حتى لو يقدَر يضربني بسّ هو ماعندوش قلب، كمان جسمي الخفيف بيخلّيني أعرف أجري م الحكومة، وعقل بقى عشان العراك مش كلّه ضرب؛ ساعات أزعّق مثلًا، أجيب ورا لو عيّل جتَّة وبقلب وهايقلّ منّي، كدا يعني.

- إية أكتر موقف حسّيت فيه بنفسك؟

«رفعَ رأسه بزاوية نحوَ السماء بنظرة فخرٍ وشعور بالذات ثمَّ أجابني»:

- أكتر موقف حسّيت فيه بقيمتي وأهميتى وإني مهمّ في الكون لما كنت شغَّال في مطعم «جمعة « بتاع الفول والفلافل. آاه والله.

«بعدَ مَصمصة الشفاه وإيماءاتِ التنذُّر على تلك الأيام استرسل

قائلًا»:

- كنت واقف ببيع، والكل تحتي، عين على الطاسة اللي بتتقلب وقرَّبِت تطلَّع، والكل عشمان ياخد منها، وعين عليّا كأنّ كل واحد بيفكَّرني بموقف له معايا وإنه يعرفني، كنت برفَع صدري قوي وأبعد عيني كأنّي مش آخد بالي من حدّ وافضَل أقلّب.

كنت بستمتَع وهما بينادوا على اسمي، بكتيريا مشّيني لو سمحت، بكتيريا اتنين سادة وواحدة محشيّة، بكتيريا.. بكتيريا..

حتى بنت الجيران الجميلة قوي اللّي كنت بخاف أبصلها لتشتكيني، كانت بتنادي على اسمي وكنت أمدّ إيدي أناولها وهي آخر واحدة ورا بثقة إنّي حاكم بأمري، يااااه بكتيريا كانت بتطلع منها دوا!

بسّ هي ماكنتش حتى بتسلّم عليّا ولا تبصّلي بعد الشغل ولا حتى بتشكرني إنّي بمشّيها، كانت عارفة إن دا حقّ جَمالها، وكفاية قوي إنها نادت على اسمي..

كنت بخلّص شغل وامشي في الشارع وأنا حاسس إنّي فطّرت الجميع، والكل بيبصّ عليّا.

كنت فرحان بأهميتي وترديد اسمي.

سرحتُ قليلًا أتفكر في ذلك الموقف البسيط الذي أشْعَرَه بذاته ورؤيته لنفسِه في موقفٍ نراه نحن مجرَّد بائع.

ثمَّ استطردتُّ قائلًا:

- والله إحساس حلو كلّنا بنحتاجه. بسّ صحيح، عملت إيه في

حوار الشُّغل اللّي قولتلي عليه؟ بسّ دا هايكون زيّ الفلافل بقى وصيتها؟

- بتاع الرمّالة خلاص هاييجي، هايظبّط معايا قووووي، اليومية بـ 300 ج، وبعد كدا هابقى مُشرف مع أستاذ عاطف المحامي، ما هوّ اللّي جايب لقمة العيش دي، هاخد 400، ومش هاشتغل، بسّ هي تتمّ بعونك يا رب.

«ثمَّ أردف وهو يشير بأصابعه بإشارةٍ تدلُّ على النقود وهو يضحك»:

- لا مافهاش صيت، الرمّالة بس فيها فلوووووس!

- إيه بقى الرمّالة دي؟

- الرمّالة هاشتغل تبَع شركة بترول كبيرة، بطلَع على البراميل العَنتابلي الضخمة اللّي فيها البترول بجهاز اسمه الرمّالة، بحطّ فيه رمل وبيرشّ رملة مع الهوا بقوَّة على البرميل الحديد عشان ألمعها، الشّغلانة دي بتاخد سنة صيانة للبراميل كلها لأنها بتكون كبيرة قوي توصَل للدور الخامس كدا، هاعمل قرشين حلوين، خلاص أستاذ عاطف قالّي هاننزل كمان كام يوم، أنا مستنّيها من زمان، دي بقى هاتلمّني م الشارع عشان لازم أنام بدري وهاجي مهدود خالص.

- على خير يا رب. بسّ مش هي شركات البترول عندها موظفين وعمّال؟!

- أيوه، بسّ دول مايعملوش الشغلانة الشقا دي، وكمان خطرة، دول

بيقبضوا بسّ وبيجيبوا ناس كلّ سنة للصيانة دي.

حوار طويل بنَميمةٍ من هنا وهناك دخلت بها كلَّ بيت في المنطقة، حواديت بين خناقات الشوارع، وأهمّ مواقف لمِّ تبرّعات زينة رمضان التي كان يرأس بكتيريا لجنةَ جمعها، وكيفية إنفاقها في شفافية نفتقد إليها في لجانٍ تتحكَّم في مصائر أمم، ثمَّ فشله في وظيفة المسحراتي لصوتِه المزعج وخبَطاته التي تشبه طبولَ الحرب، مرورًا بكشك السجائر الذي أخذَه الحي منه.

حوار تخلَّله الكثيرُ من هيستيريا الضحك، وانتهى بتحديد الموعد القادم .

مرَّت أيامٌ وأيام وأنا غارقٌ في ترتيبِ غنائمِ هذا اللقاء أهندم تلك التفاصيلَ العشوائية، وأنسجُ منها ملحمةً شعبية متماسكة، أستعين بجيراني كأبطالٍ لتلك الملحمة، أخرج تفاصيلهم العادية المهمشة كواجهة غرائبيَّة لكل مَن لم يعِشْها، يكتب قلمي من مدادِ عين بكتيريا التي لا تنام تحرس ليلًا قططَ الشوارع، وتكون سترًا لمضاجعات الكلاب، وتكون أمانًا للفئران كي تخرج وتستبيح الشارعَ، ونهارًا ترتب طوابيرَ العيش، وتبحث عن سببٍ لمشكلة لتنشب، وعن خصميْن لتعقد بينهما جلسةً للصلح..

ذاتَ صباح على غير العادة التي كنتُ دائمًا أقابله عليها ليلًا، تعثرت فيه معَ أول دفقاتِ الصباح، يحمل كيسًا من البلاستيك فيه ملابس تبدو باليةً، وحوله بعضُ الشباب في عيونهم جميعًا يرقد نومٌ لم يأخذ حظَّه بالكامل.

اقتربتُ منهم لأستقصي الخبرَ فإذا به يتحدَّث بنبرة فرحة وأمل:

- وشّك حلو علينا، نازلين النهارده الشغلانة بتاعة البترول، أستاذ عاطف مضَى عقد سنة مع الشركة.

سعادةُ حديثه وتراقص قسماتِه أضفتْ على وجهى ابتسامةً وراحة صباحية مَمزوجة بالأمل. تركتُهم بدعاءٍ لهم بالتوفيق، مع تذكيرِ بكتيريا بموعد الغدِ بيننا.

عدتُّ ليلًا من عملي، ألقيتُ نظرة على مربضِ بكتيريا عند مقعده الدائم بجوار الجراج فلم أجدْه لأعلمَ أنَّ العمل قد فعل فيه فعلتَه من الشَّقاء كما كان يقول، وأنَّه الآن يخلد للنوم لشقاء الغد.

أمرٌ جعلني أفكرُ في عدم إمكانية حضور بكتيريا في الغد، فقلت في نفسي.. إنْ حضرَ لن أطيلَ عليه، وسأجعله اليومَ الأخير. وإن لم يحضرْ فلَه عذرُه الكبير الجميل، وعزمتُ على رفع الحرج عنه في الصباح إذا ما تعثرت فيه عند ذهابه للعمل كاليوم.

صباحٌ جديد يشق سكونَه صوتُ بكتيريا مناديًا على زملائه في العمل الجديد من شباب المنطقة، كعادته لا يتمُّ له أمرٌ إلا بالصياح والجلبة، تعجلتُ في تحضير نفسي للنزول حتى أقابله قبل أن يذهبَ وأرفع عنه حرجَ موعدِ اليوم إن شعرَ بإرهاق من عمله، لكنَّها عجلة لم تكن كافية فعندَ نزولي كان السكون يحتلُّ الشارعَ بعد انسحاب بكتيريا ورفاقه للرمّالة.

في مُنتصف اليوم جاء بخاطري لماذا لا أحدثُه أطمئنُّ على عمله الجديد، وفي نفس الوقت أبلغُه بعدم ضرورة اليوم إن كان مرهقًا. لم

ألبثْ حتى قمتُ بالتنفيذ، وبسرعة المنتظر لمكالمة، أو المرابط عند زرِّ الفتح؛ كان ردُّه سريعًا.

- حبيبي أهندسة، كنت لسّه في بالي، متقلقش مش ناسي معاد اليوم، حظّك حلو حتى في اتصالك، أنا لسّه نازل من ع البرميل، وقت الرّاحة دلوقتِ، لو اتّصلت بيا وأنا فوق ما ينفعش كنت أرد.

***

لم يترك لي أيَّ فرصة لمحاولة إراحتِه، بل أخبرني أنَّه هو مَن يريدني لشيء هامّ جدًّا، وترجّاني بألا أتأخر.

في موعدِ العودة، وفي مشهدٍ شبهِ متكرر في مَساءات ناصية شارعنا الطويل بحدَّيه القريبين، رمقتُ قبل وصولي من بعيدٍ تجمعاتٍ بشريةً وهرولةً من هنا وهناك وجَلبة، قلت لم يمنعْه العمل الجديد من تلك الغَزوات الليلية التي تقلب الشارعَ رأسًا على عقب، كنت مشفقًا عليه من الرَّهق، لم يشفقْ هو على نفسه من الخناقات.

لكنَّها على مايبدو ليست خناقة جافَّة كما كان يسميها بكتيريا؛ فالعويلُ والشَّتات يُنبئ بدماء قد أريقت وفواجعَ قد حدثت.

اقتربتُ أكترَ فأكثر، الوجوه جميعُها تتراءى أمامي ولم يظهرْ هو بعد،

اقتربتُ لألتحمَ بأوَّل تجمعٍ كان على رأسه «عاطف» المحامي، وحوله بعضُ شباب وشيوخ المنطقه يتحدث....

: ليس من مَصلحتنا أن نُقاضي الشركة، هو مَن رفض ارتداء

ملابس السَّلامة والصحة المهنية، نحن قلنا هذا في المَحضر حتى لا تكون أيّ شبهةٍ جنائية، وقد وعدتْنا الشركة بتعويضٍ كبير ومَعاش.. هايكون رزق «تسنيم»، وحتى لا يتعطَّل استخراج تصريح الدفن، وإكرامُ الميت دفنُه.

(7)

في قلبي خروف

حالةٌ من الهدوء الذي يسبقُ العاصفة تخيِّم على شارع «الرحمة»، الشباب عند مَداخل البيوت في تجمعاتٍ متفرقة وعند نواصي الشوارع الجانبية المتفرِّعة من «الرحمة»، أسلحةٌ بيضاء تُعد أركانًا مُمتلئة بكسرِ الطوب والسيراميك، أخبار تتناثر هنا وهناك عن إصاباتٍ في جولة الإمس في صفوف معسكر المعتدين، ضحكات ونِكات وسخرية من بعضهم البعض على طريقة أحدهم في «العركة» أو هروب آخر.

أما المنازلُ فأغلب مَن فيها من نساء وصغار قد تجمَّعوا عند شقق الدور الأول حيث الرؤيةُ الواضحة لميدان المعركة والنزول السريع إذا ما احتاج الأمر.

أطفال وجلةٌ قلوبهم ومخطوفةٌ وجوههم لا يكادون يفقهون السببَ لكن التَّجمعات واللعب مع أقرانهم من أبناء الجيران المتجمعين تُهدأ من روْعهم قليلًا.

نساء يثرثرنَ ويعِدْن حكيَ ما شاهدوه جميعًا بأمِّ أعينهن، ممزقٌ حالهنَّ بين خوفٍ على الرجال ومتعة الجلوس مع بعضهنّ، وتسامرهنَّ على موائد الغيبة والنميمة ولغو الحديث.

الحالُ هو الحال منذ ثلاثة أيام، من وقت نشوبِ تلك المعركة بين عائلات عزبة «القاضي» وشارع الرحمة، نهارٌ شبه معتاد لا يشبه ليلَه،

وليلٌ مفعَم بالترقب، لا سيَّما من بعد صلاة العشاء وموعد الهَجمات المعتادة، حيث عودةُ الرجال من أشغالهم وتناولهم الغداء ثمَّ الاستراحة للعراك ليلًا.

معركة تبدأ دون مقدمات، وتنتهي دون مُنتصر، كرٌّ وفرّ وإصابات من هنا وهناك، وبطولاتٌ فردية من الجانبين تروى لليوم التالي حتى تكون بطولة أخرى.

مرَّت أيام وأيامٌ على تلك الحالة من الغارات الليلية وتحضير وسائل الدفاع والرَّدع والحذر وعدم الاسترخاء، التغيير الوحيد الذي طرأ هو عدمُ انتظام الهجمات كلَّ ليلة بعد دوامٍ لأربعة أيام، فأصبحت متقطعةً تعطل يومًا أو يومين دون اتفاق، فقط يكون تقاعس من المعتدي.

حالةٌ من الضجر والإرهاق من تلك الحيطة اليومية والفزع بدأت تدبُّ في نفوس الأهالي، وبدأ التعبيرُ عنها يكون في العلن بعدما كانت مَكنونة في صدور قاطني «الرحمة»، خوفًا من أن يُنعت مَن يعلنها بالجبن أو التخلّي عن الدفاع عن الشارع، وسمعة رجاله في وجه عدوانٍ خارجي.

لكنَّ الأمر قد زاد عن حدِّه على حدِّ قولهم، لا سيَّما وقد أصيب البعضُ بإصاباتٍ بالغة، وتكبَّدت بعضُ المحال الخسائرَ نتيجة الإغلاق المبكر، أو ما طال فتارينَها الخارجية وواجهتها من تهشيم وما حدث لثلاجات المياه الغازية من تكسير وتعطيب.

بدأتِ الأصوات الرافضةُ والطالبة للمصالحة تسود الآراءَ ويكون لها

الغلبةُ مع اقتراب دخول أيام العشر الأوائل من ذي الحجة ثمَّ العيد الكبير، والكلُّ يتمنَّى أن تهلَّ عليهم تلك البركات دون فقدٍ أو إصابة أو خوف.

يتمنّون أن يعود الشارع للاسترخاء، وتعود مباريات كرة القدم الليلية بين شباب الشارع للإقامة، وتفتح محلاتُ البقالة والخردوات- وغيرها- أبوابَها، وتعود مكبراتُ صوت «وحيد» بأغانيها الشعبية التي كانت تجعل الشارع كلَّ ليلة في حالة عرس كبير، وإن كان «وحيد» هو نفسُه مَن كتمها بتلك المعركة الناشبة التي أقيمت لياليها الدامية على شرف «خروفه».

كثرتِ الهمهمات هنا وهناك، والمحادثات الجانبية من عقلاء الشارع وأصحاب المحالّ حتى تجمّع كلُّ هذا الشتات في ورشة «عطوان»

وتمَّ الاتفاقُ فيما بين الكبار على إرسال وفدٍ من العقلاء إلى كبار «عزبة القاضي» لعقدِ جلسةٍ عرفية للصلح تكون أحكامُها ملزمةً للطرفين.

قبل ذهابِ الوفد إلى العزبة تمَّ الاجتماعُ مع شباب الشارع وعلى رأسِهم «وحيد» لإخبارهم بما تمَّ الاتفاقُ عليه بين كبار الشارع وهو ما قابله الشبابُ بالتَّململِ من الوضع بالقبول على مَضض بعد رفض خافتٍ على استحياء يحفظ لطيش الشباب حقَّه.

الخميس بعد صلاة العشاء..

الموعد المنتظر كما تمَّ الاتفاق عليه، تحضيراتٌ مختلفة في مساء هذا اليوم على غير ما سبق من مَساءات، فِراشة مستأجرة يساعدُ

الشباب في رصّها، طاولاتٌ مصفوفة حولها مقاعد، أمام كلِّ فرد محتمَل زجاجةُ مياه وعبوةُ عصير، يصاحب ذلك تجهيزاتٍ نفسية من كبار الشارع للشباب بالهدوء والرويَّة واحترام ما سيتمُّ الاتفاق عليه لتتم المصالحة على خير.

اجتمعَ شملُ الفُرقاء أخيرًا، والتقى الجمعان على طاولة الصلح في مشهدٍ معتاد في حلِّ هكذا مشكلات ونزاعات.

وجومٌ وتحفز يعلو الوجوهَ المُجتمعة، أبصار وقلوب تتابع مِن الشرفات والنوافذ.

سردٌ من كلِّ طرف، عتابٌ من هنا وهناك، مشاحنات وتحرشات لفظية تهبُّ من وقتٍ لآخر، ويُطفئ فتيلَها العقلاء حتى جاء وقتُ الطلبات والأحكامِ الإلزامية على الجميع، ليتحدَّث الحاج «فاروق» كبيرُ عزبة القاضي:

- طلبنا مش كبير، إحنا عايزين ندبَح الخروف سبب المشكلة تحت رجْل ابننا اللّي اتنطح واتعوَّر منه، مش هانقول عايزين «عجل» ولا أيّ مبالغ كبيرة، إحنا عارفين الظروف كلها عند الجميع.

ليردَّ المعلم «ناصر» من شارع الرحمة:

- عدّاك العيب، ومش كتير على ابننا اللّي اتعوّر ندبح تحته خروف ولا حتى اتنين.

ليقاطعَه «فاروق»:

- خروف «وحيد» يا معلم «ناصر» سبب المشكلة.

ليخالفَ هنا وحيد ما تمَّ الاتفاق عليه من قبْل بعدم التحدث في وجودِ الكبار، ويتحدث بتحفُّز واشتياط:

- على جثتي الخروف يدَّبح، ولو هايسقط بدالُه مية راجل.

لتقاطعَه أصواتٌ شتى من هنا وهناك متداخلة...

- كدا راكبَكِ العيب يا وحيد، إزّاي الدَّم عندك رخيص عشان خروف مسيرُه الدبح.

وقال آخر:

- اسمعْ للكبير يا وحيد، وقدَّره.

وردٌّ من الجهة المقابلة:

- إحنا غلطنا لمّا جينا واحترمْنا كلام الكبار، وحقّنا هانعرف ناخده.

ردودٌ وردودٌ مقابلة، كادتْ أن تحول مجلسَ المصالحة إلى معركة كبيرة دامية حتى تدخلَ الكبار بالتهدئة مع تأكيدِ المعلم « ناصر» على قَبول الحكم، خاصَّة من بعد دعمه والموافقة عليه من المشاركين المُحايدين من مناطقَ أخرى، لينصرف «وحيد» غاضبًا وهو يقسم بعدم القبول، وأنَّه غيرُ ملزَم بتنفيذ تلك الأحكام، لتنتهي الجلسة بتحديد الغدِ الجمعة بعد الصلاة موعدًا لتنفيذ ما تمَّ الاتفاق عليه.

***

هدوءٌ نسبي يخيِّم على شارع الرحمة ليلًا بعد أن انفضَّ المجلس،

هدوءً من الجلبة والصياح المُعتاد ليتحولَ إلى أحاديث جانبية صغيرة بينَ الشباب على النَّواصي، وفي مقهى الشارع وفي البيوت بين النساء المجتمعات.

الكلُّ يترقبُ الغد، حائرة عقولهم، يبدو مطلبُ المصالحة يسيرًا وفديةً بسيطة إذا ما كانت حقنًا لدماء الشباب والرجال، أن تكون التضحيةُ رأسَ خروف وحسب، لكنْ ثمَّة حزنٌ ورفض يخرج على استحياء لكنه شديدُ الوضوح على الوجوه، خروف «وحيد» لم يعدْ مجرد خروف، لقد أصبح علامةَ الشارع الأبرز، ذلك الخروف الذي كان في ليالٍ كثيرة سابقة هو سلوتَهم بمُضايقاتهم له، وجريِه خلفهم، بل هو الرفيقُ الأوحد لوحيد، يتبعه في كلِّ مكان دون وثاقٍ يُهرول عليه إذا ما رآه من بعيد.

يشارك وحيد عشتَه التي يسكنُها بجوار الجراج الصغير الذي يديره، خروفٌ قد أخذ من صفات بعض الحيوانات الأليفة، يؤدي بعض الحركات التي يطلبها منه «وحيد» كالجلوس أو التمرُّغ على ظهره في الرمال، خروف طالمَا تحلق حولَه الأطفال يشاهدون العروض التي يأمرُه بها «وحيد» أن يؤدّيها، يزين رأسَه في الأعياد ويضع على قرنيْه البلالين، لا سيَّما مع شكله الفريد بين الخراف، حيث القرنان الكبيران باللفَّة الحلزونية بانتهاء حادٍّ كأنهما رأسُ سيف، وجسد قوي قد ساعدَ على ظهور تفاصيله حلاقةُ الشَّعر المعتادة التي يقوم له بها دائمًا «وحيد»، فضلًا عن لونه «البيج» النقي دون رَوثٍ عالق على جسدِه بفعل الاستحمام الدائم، صفات وأفعالٌ فريدة من نوعها، حتى تناسَى الجميع أنه مجردُ خروف

مصيرُه الذبح، بل مخلوق لا يعرفون له كُنة، لكنه محبَّب جدًّا لنفوسهم، ومُشارك في تفاصيل يومهم وصنع ذكرياتهم.

حكاياتٌ هادئة في أركان الشارع عن جديةِ تنفيذ حكم الجلسة الواجب للنَّفاذ، وعن ذكرياتهم مع الخروفِ التي ترطب حزنهم الخفي ببعض الضحكات.

***

وفودٌ تَتناوب على عشَّة «وحيد» من كبار وشباب أهالي المنطقة تقنعُه بالقبول، وألا يكسرَ اتفاقَ الكبار، وإن كان الجميع يبدي تضامنَه معه في الحزن، لكنَّه في النهاية «بهيمة» مصيرُها الذبح طالَ الزمان أو قصر.

مكوثٌ لوحيد في عشتِه مبكرٌ جدًّا على غير العادة، فهو عين الشارع التي لا تنام، وأمانُها لكل مَن دعتهم الحاجةُ للنزول في ساعات متأخرة من الليل.

ليلةٌ طويلة عليه بكثرةِ الإلحاح وهو يرى نفسَه لأوَّل مرةٍ وحيدًا في رأيه وشعورِه الذي لا يستطيع وصفَه، يحبس داخلَه دموعًا يكابر أن يراه أحدٌ يبكي وهو صاحبُ الجلَد الدائم، فكيف يكون أولُ بكائه على «خروف»!

قلَّت الأقدام عليه مع تأخرِ ساعات الليل حتى انعدمت مع دخول وقت الفجر، ليأتيه صديقُه في الشقاء والليل، قد انتظرَ حتى يذهب الجميعُ عن صاحبِه حتى يأتيه وحده، ليحدثه:

- ناوي على إيه يا صاحبي في الحوار دا؟!

- على جثتي يا جعفر حدّ يمسّ الخروف.

- يا صاحبي اسمع منّي يا حبيب اخوك، الموضوع مش عِند وخلاص يا وحيد، الناس تعبت يا صاحبي، وفي رجّالة وقعت، وكله عايز الصلح والدنيا تهدى يا زميلي.

- وأنا مش ضدّ الصلح وقلتلهم عوَّروني زيّ ما الخروف عوَّر الولد، اضْربوني أنا.. لكن هو مش هايدَّبح.

- ياااه يا زميلي للدرجة دي يهون عليك نفسَك عشان الخروف، دا أنت طلعت بتحبّه عن «دلال»، بالحقّ هي رأيها إيه في الحوار دا؟!

- رأيها نفْس كلامك وبتقولي أنتَ بتحبّه عنّي، بتقولي لو الحوار مخلصش نفضّها سيرة ونفسخ الخطوبة.

- بصراحة عايز الحق، عندها حقّ، البنت عملت مشاكل مع أهلها عشان الخطوبة وأنتَ كلّ يوم والتاني في حوار، هي اختارتك وعايزه الدنيا تهدَى عليك، يا صاحبي متخسرش البنت، دي شرياك قوي، وحاربت عشانك، عيب تبدّي خروف عليها.

- والله ما عارف أقولّك.. أنا بجد مَخنوق، عارف الخروف اللّي بتقول عليه دا أنا والله حبّيته عن البشر، أهو على الأقل لا بيقولّي أنا يا خطيبتك ولا بيذلّني عشان يبقى معايا، والله أوفى من البشر، دا لو حدّ لمَسني بهزار يجري عليه ينطَحه، أروح أنا أقدِّمه يدَّبح بإيدي! إزّاي بس!

- يا صاحبي دا خروف.. خروف للذَّبح والأكل! كمان بقى بصراحة أنت اللّي كبَّرت الحوار، لمّا جالك أبو الولا وابنه سايح في دمّه كنت راضِيه بكلمتين وخلاص واستحملْ غضبه على ضَناه، لكن أنتَ دخلت فيه شمال وشتمتُه لحدّ ما بقى حوار كبير وأنتَ ركبَك الغلط.

عايز نصيحة أخوك.. اقبلْ يا وحيد، ما هو أنتَ غلطت ولازم تشيل، بلاش تخسَر خطيبتك ولا تاخد ذنب حدّ يقع ولا يتقتل من الرجالة والله ماهتسامحْ نفسَك، والعيد على الأبواب.. نخسر الخروف يتعوّض بدل ما بيت يخسر جدَع، أو عيل يتيتّم، هاتفرح يعني أنت كدا! كفاية اللّي في القسم واللّي اتعوَّروا، كفاية يا صاحبي دم، الناس وقفت معاك وخسرت، ضحّي أنتَ بقى عشانهم. بصّ أنا هاطلع اقولّهم خلاص، وأنت بُكره أبعِد عن الشارع، وتعالى لمّا الليلة تتمّ، ويا عمّ عايزين نفرح بفرحَك مش تفسخ عشان خروف، اجمدْ كدا يا جدع، ما لك في إيه، طول عمرك ماعندكش قلب.

تركَه «جعفر» دون أن يتفوَّه «وحيد» بكلمةِ رفضٍ أو قبول أو أي إيماءة! تركه وهو ينهي حديثَه أنه سيأتيه بعد الصلاة حتى يأخذ الخروف وينهي الأمر.

***

قبلَ صلاة الجمعة، أخبرَ «جعفر» الرجال أن كلَّ شيء في موعده بعد الصلاة، وأنه أقنع صاحبه.

انتهتِ الصلاة. امتلأ شارع الرحمة بالأطفال والرجال، والنساء تتابعنَ من أعلى، حتى جاء وفد «عزبة القاضي» وطفلهم.

توجَّه جعفر لعشَّة «وحيد» والذي لم يظهرْ منذ الصباح ولم يحضرِ الجمعة معهم كعادتِه في مسجد المنطقة.

ما إن وصلَ «جعفر» أمام العشة وأخذ يطرق البابَ وهو ينادي على صاحبِه حتى فُتح الباب من تلقاءِ نفسه وكأنه لم يكن مغلقًا من الأساس، ليدخل «جعفر» فيجد الخروفَ دون «وحيد» ليدرك أن صاحبَه قد ذهب حتى لا يرى المشهد.

يحاول «جعفر» سحبَ الخروف والذي يأبى أن ينخلع من العشة لم يعتَدْ على هكذا خروج، وقد كان كلَّ صباح يتبع صاحبَه دون وثاق.

يشدُّ «جعفر» الخروفَ بكلِّ عزم فيأبى أن يتزحزح، مع كثرة المُحاولات لا يتحرك قيدَ أنملة، حتى قررَ جعفر أن ينادي على بعض الرجال للمساعدة، فتوجَّه إليه البعض، خرجوا به محمولًا قد تناولوه جميعًا بعدما استحال إخراجه سحبًا.

ما إن وضِع الخروف في منتصف الشارع حتى تحلقَ حوله الأطفال بعيون شاخصةٍ دون جلبتهم و فرحتهم وصياحهم المعتاد، ينظرون إليه نظرةَ مودِّع، حلقة لا يكون داخلها «وحيد» بجاور خروفِه، لأوَّل مرةٍ يُقلب الخروف عنوةً على ظَهره بعزم الرجال، وهو الذي كان يتقلبُ مرحًا بإشارة من «وحيد». في هذه الأثناء- وقبل الذبح- يخرج وحيد في منتصف الحلقة وكأنَّه قد نبتَ من باطن الأرض لم يلحظ أحدٌ تقدمَه قد كانت أبصارهم خاشعة نحو تمدُّدِه، يظهر فجأةً ينهر مَن هُم على الخروف ينتظرون السكينَ لذبحه ليوبِّخهم بصوته الغليظ الحاد:

- برّاحة عليه يا ولاد الـ.. براحة.

لينتبهَ له مَن كانوا على الخروف من الشباب، ويرخونَ أيديهم عنه قليلًا امتثالًا وتهدئةً لغضبةِ «وحيد»، لينتهز الخروف الفرصةَ وينتفضَ بجسده القوي ويتفلّت من قبضتهم هاربًا، والجميع مِن حوله وهو يمرقُ كالسهم.

يغدو بطريقةٍ لم يجرِ بها من قبل، بسرعةٍ جعلت بينَه وبين مَن يريدون الإمساكَ به مسافة، يجري بجنونِ مَن يهرب من الموت إلى أحضان الحياة، والتي على مايبدو قد رآها وحدَه في نهاية الشارع العمومي الطويل الذي أصبحَ في أوله بعدَ خروجه من شارع «الرحمة» مسرعًا.

مازال يجري والصبيةُ من خلفه بالصياح والهِياج، وهو يعدو أكثرَ وكأنَّ أصواتهم تُلهبه وتشجّعه على زيادة السرعة.

في هذه الأثناء، أخذ «وحيد» يسبُّ ويشتمُ الأطفال وهو يجري جوارَهم طالبًا منهم الوقوفَ حتى لا يشرد الخروف أكثرَ من ذلك خوفًا من أصواتهم، وهو على ثقة، أنَّ الخروف سيقف عندما يعلم أنَّه لا أحد يتبعه إلا صاحبه.

بالفعل بدأ الأطفال يستجيبون لنداءاتِ وحيد الجنونية، وسيلِ شتائمه لهم حتَّى أصبح وحده مَن يعدو خلفَ «خروفه» الشارد بعيدًا.

يجري وحيد وراء مَن كان يتبعه دائمًا دون عناء، يجري ويجري بطريقةٍ هستيريا وتفرُّ من عينيه دموعٌ قد جاهد طوال الساعات

الماضية ألا تنزل، لكنَّ صاحبَه في طريق هروبه لا يعبأ سوى باستكمال الطريق الطويل الرئيسي.

مازال الأمرُ كذلك حتى باغتث «وحيد» سيارةٌ تسير عكسَ الاتجاه قد حجبَها عنه دموعُه الغزيرة، وجريه دون وعيٍ خلف صديقه ليجد نفسَه في أحضانها قد ارتطمَ في مقدمتها بقوَّة لتطيح بجسده النحيل إلى الحارة المجاورة لتدهسَه سيارة أخرى ليصبح جثةً هامدة غارقة فى دمائها، بينما صاحبه قد تلاشى عن الأنظار بعيدًا.

(8)

"جنينة صابر"

صابر الأوّل

سمّاني أبي «صابر» كي يحققَ أمنية جدي، وكي أسيرَ على طريقتهم فأصبحت صابرًا بالثلاثة؛ صابرًا من الأعماق، صابرًا إلى حدٍّ جدّي، كان طريقُه دربًا من دروب الخبَل عند أهل بلدتنا، فعلى الرغم من فقرنا إلا إنَّ جدّي «صابر الأول» بدلًا من أن يستخدمَ قراريطه في زراعة ما يمكن بيعُه وإخراج قوتِه منه، جعلها مشتلًا، زرعها زهورًا في قريةٍ لا تعرف رفاهيةَ تقديم الورد ولا حبّه، ولا حتى التغزل في جَماله؛ بل لم تساعدهم ظروفُ معيشتهم أن يعرفوا الحبَّ من الأساس.

كان يعتمد على بعض مَن يأتون من البندر، وبعضِ الأتراك الذين يشترون منه الزهور.

كان جدّي بارعًا في صناعة لفافات الزهور بشكل أنيق وكتابة العبارات الرقيقة عليها حسبَ المناسبة وزبائنه من الخاصة..

صاحب صوتٍ شجيّ يتغنى بالقرآن وينشد بعضَ الأشعار، محبًّا للفنون والجَمال في بيئة خشنة، كان ما يفعله مسارَ سخريتهم، بل نال بعضهم من رجولته وصلابتِه لأنه يمتلك قلبًا، ولأنه يحب.. وذلك أكبر صبْره، وحظّه من الاسم الذي سمّاه له والده، والذي بدأ ربما مَحض قدَر، لكنه صار صفةً نُعتَت بها من بعده عن قصدٍ وقناعة

ليخلد الاسم والصفة.

ومِن مفارقات قريتنا أنَّ مَن يرميَه بالخبل يأتيه إذا ما لمَّت به مشكلة أو أرادَ نصحًا أو مجلسَ صلح، فقد عُرف عن جدّي الحكمة وطيب القول، لا يردُّهم بسوءِ صَنيعهم له، كبسمةٍ بين وجوه كادحة، ولينٍ بين أجسادِ بأس وشقاء، يحدثُهم عن ربه بآياتِه المقروءة والمرئية في الطبيعة، له كُتّاب يُحفِّظ فيه آيات الله، ويدربُ فيه على الإنشاد، يحاول إنشاءَ جيلٍ له قلبٌ وعقل وروح، لكن ذلك لم يدمْ طويلًا.

- لنصل الآن لبداية ما سألتني عنه يا بني، سبب تسمية تلك المعديَّة بمعديَّة «صابر»؟ ولماذا أنا صابر الثالث، وسرّ تزيّنها بالزهور والزروع؟

في الأساس هي ليست قصةً للمعديَّة، ولا قصة صاحبها بقدر ما هي قصةُ تلك الترعة ككل، وقصة أملٍ زائف ماتَ تحته الكثير من المصريّين، وحقبة تاريخية لم يتبقَّ منها سوى ترعةٍ خرقت وحدتنا، ومعدية تصل حاضرَنا بسيرة ماضينا.

فلنكمل...

استدعوا جدّي كما استدعوا الكثيرَ من الفلاحين للعمل الإجباري والاشتراك كما قالوا حينَها في المشروع المصري الكبير مشروع الخير للمصريّين كما أطلقوا عليه وقتها.

أخذوه من ورداتِه التي يراعيها، ومن أطفال القرية الذي تعهَّد تربيتَهم على الإيمان والجمال في كُتّابه البسيط.

- كيف أخذوه؟ وإلى أين؟ وما هو المشروع؟

- سأجيبك يا بني فلا تتعجَّل، فالقصة كما قلت أكبرُ من مجرد «معديَّة». جئت للسؤال عن سبب تسميتها لقد سألت دون قصدٍ عن تاريخٍ كنت أتحيَّن الفرصَ لأسردَه على مهلٍ فنحن دون معرفة ما قد حدثَ عميان نسير إلى ما سيحدث.

كان المشروع المزمَع تنفيذُه هو ممرًّا مائيًّا فرعيًّا من نهر النيل، يخترق مدينةَ الإسكندرية وينتهي في البحر المتوسط، وكان القرار أن كلَّ منطقة سيمرُّ منها الممرُّ المائي يقوم بحفرها والعمل فيها مَن يسكنها من الرجال والقريبين منها.

ومَن يرفض العمل يكون رافضًا لمشروع قومي، بل معطلًا للخير القادم والنهضة، ويقدَّم للمحاكمة العسكرية.

كان ذلك أولَ ما تمَّ إعلانه عن المشروع، حتى بدأو العمل الفعلي بعد ذلك في أقل من شهر.

لكن ومنذُ الإعلان كان جدّي كما حُكي عنه في حالةٍ من الكرب والحزن، كان يفكر في أمرِ الغد حتى سُلب منه اليوم.

بدأ الحفرُ وكلما سمعَ جدي باقترابه اشتدَّ حزنه، كان ينظر إلى ورداته نظرةَ مودِّع وكأنه ذاهبٌ إلى الموت لا العمل لفترة ثمَّ العودة، لكنَّه ليس كأيِّ عمل، ليس لكونه عملًا شاقًّا فقط لكن ظروفه وقوانينه مقيّدة للحرية لرجلٍ اعتادَ الهواء الطلق والعملَ فيما يحب.

طبيعةُ العمل كأنها فترةُ أعمال شاقة في سجن، وذلك حتى ينتهي

العملُ في الفترة التي حدَّدها «محمد علي» للمشروع، بغضِّ النظر عن طاقة وقدرة العمّال.

كانتِ التعليمات كالآتي..

قبلَ مجيء الحفر عند منطقتك عليك بتسليم نفسِك، فمِن هذا اليوم ستسكنُ في خيام العمال التي أعدّوها لمَن يعملون في الحفر، وإن كان بيتُك قريبًا لأنَّك ستعمل من مطلع الشمس إلى غروبها.

تنامُ لتستيقظ للعمل لا شيء سوى ذلك، ولا حياة سوى بين الصخور الواعرة والردم والأتربة.

أمرٌ قاسٍ على أيِّ نفس، فما بالك بنفسٍ كانت تجاور الزهورَ وتستنشق عبيرَها! كيف ستلتحمُ بالحجارة الصماء وتتجرع من عفارها؟!

تمرُّ الأيام وجدّي مع كلِّ يوم يزداد حزنًا وسوءًا حتى جاء يوم الطامة عليه.

أتى مندوبُ جمْع الرجال للبلدة، فقد اقتربَ الحفر، عبّأوا الرجال إلى سجنِهم المقنع كي يصنعوا النهضة.

انتهت أخبارُ جدي منذ أن أخذوه لفترةٍ جاوزتِ الأسبوعين، حاول والدي الحفاظَ على الزهور لكنها كما قال جدّي ليس بالماء وحده يحيا الورد، فبعضُه ربما افتقدَ حبيبه وونيسَه وفقدَ الاهتمام فتدلَّى على ساقه يائسًا من عودته حتى مات.

أتى المندوبُ مرَّة أخرى لكنه عاد هذه المرَّة بورقة بيضاء ملطَّخة

بأسماء الموتى، نعم، الموتى، وكأنهم ذهبوا ليحفروا قبورهم قد أصابَهم الطاعون أثناءَ الحفر، فماتوا دون علاج أو رعاية، بل بعضُهم اتهموا بالتَّمارض فعاقبَهم الجنود بالجلد فماتوا مُثخنين مع مرضهم.

كان اسمُ جدي ضمنَ الموتى بل القتلى، قد أمر «محمد علي» أن يدفنوا على جانبٍ من جانبي الترعة تخليدًا لدورهم، ويضع رمزًا بسيطًا فوق كلِّ جثة عليه اسمُه، وحتى لا تعود الجثث إلى الأهالي فينتشر الطاعون، يا لها من رحمةٍ عظيمة ومنَّة كبيرة أنْ حفظ الأهالي من الطاعون وكأنه لا يعلم بأنه قهرَهم بالفراق، وطعنَهم بالاشتياق وجلدَهم بالوحدة.

دفنَ صاحب الورد تحتَ الصخور التي رفعها من الأرض، مات بعيدًا عن تلاميذه وتجمعهم، مات مقهورًا.. ودُفن وحيدًا.

لم يكن وحدَه، بل كان اثنا عشَر ألفِ قتيل من المصريين، بعد ذلك لا تسمَّى مثلًا بترعة الشهداء أوالمصريّين؛ بل تسمَّى «ترعة المحمودية» مجاملةً للسلطان محمود خان الثاني!

فما كان من أبي إلا أنَّه أراد أن يميزَ أباه في مرقده كما كان في حياته، حتى لا يُنسى تحت الركام مع الآلاف؛ فأحاط قبرَه البسيط بالزهور وزيَّنه بكلماته الحكيمة حتى تحوَّل لمزارٍ من تلاميذه؛ حفظة القرآن، وذاع سيطُ القبر كمدفنٍ لوليٍّ لتميُّزه بالوردات والرواد

فأقامَ أبي مع محبّي جدي بعد ذلك تلك المعديَّة لتكون صدقته الجارية وتخليدًا لاسمِه، لا سيَّما لاحتياج الناس إليها لتباعدِ المسافات بين الكباري التي شيَّدها الحاكم واكتظاظ تلك البقعة

بالسكان.

ليمرَّ الناس على ظَهره من جانب سكْناهم إلى الجانب البحري حيث التعليم والمصانع والحياة، كما كان لهم في حياته قناة عبور للنور والجمال.

أنا الآن مَن أقطن تلك المعدية «صابر الثالث» أكمل مسيرةَ أبي «صابر الثاني» وأزيِّن جنباتها بأصصِ الزهور والزروع الحية لتُحيي بعبيرِها قصةَ جدّي الذي مات.

(9)

المعديَّة

"صابر الثالث"

ما ظنَّ أن يأتي يومٌ ويكره شيئًا ينتظره كلُّ أهل المنطقة بالبِشر وهو الذي كان يشاركهم كلَّ الفرْح والطرح، بل عاش حياتَه ساعيًا لكلِّ خير للمنطقة وأهلها.

أخذ يبتعد عن تجمُّعاتهم حتى لا يفسد فرحتَهم برؤيته المختلفة للمشروع، ولا يرهق بالَه بتذكُّر شبحه الذي لم يبرحْ رأسه منذ أن تمَّ الإعلان عنه.

أحيانًا يعذرهم فمُقابل التعويض كبير، والمساكن الجديدة الموعودون بها أكثرُ آدمية وتطورًا كما أخبروهم عنها.

الأهالي لا يَعنيهم ما يَعنيه من تاريخ ورمزٍ للمنطقة، وبما سيفيد التاريخ في واقع بائس.

لسانُ حالهم، هل سيأكلون بالتاريخ؟ هل سيحسن التاريخ معيشتَهم؟ ولماذا يكون الحفاظُ على التاريخ مرهونًا بتَعاسة حاضرهم في تلك المنطقة النائية؟!

بدأ العدُّ التنازلي لتنفيذ المشروع.

كثرتِ المبالغات في جدواه وعوائدِه وأهميته، وبات خبرًا سعيدًا ليس فقط للأهالي ولكن للوطن برمَّته، أصبح لهم الحلمَ والمخلص

من حالة عوَزهم، وبيوتهم القديمة، ومشروعًا تنمويًّا يعول عليه في تحسين اقتصاد البلد.

مع ذلك الاقتراب..

منازل قد أخليت، ومحالّ بقالة بسيطة قد أغلقت، أثاث مكَمْكم منذ وقتٍ طويل في علبٍ هذه المنازل العتيقة بدأ يخرج للتَّهوية عند انتقالهم وخروجهم منها، ضجيج بدأ يقطع هدوءَ المكان رغم رحيل بعضِ أهله عنه، سلامات ووداعات هنا وهناك أفراح وأمنيات معلقة.

لكن «عم صابر « ومعديّته لا يَعنيه ذلك، مُغيَّب عنهم في عالم آخر، يخفي بداخله أحزانَه حتى لا يفسد فرحتَهم، أصبح وحيدًا بهمِّه وحزنه يحاول أن ينأى بأذنه عن أخبار تقدُّم الردْم، قلبه يجافي عقله الذي بدأ يؤمنُ بالشواهد، لا يصدق أن كلَّ هذا التاريخ الطويل للترعة والمعدية سيكون ماضيًا ليس له أثرٌ على الأرض، ألجمَه الصمت حيالَ ما ليس بيدِه إيقافُه، فأخذ يراقب شبحَه القادم فقط، وعيناه تدور على مَن حوله كالمغشي عليه من الموت.

الجميع ينتظر بزوغَ شمس معدات الرَّدم وتطوير المنطقة، وهو بعين شاخصةٍ يرسل بصرَه من على سطح المعدية على مدِّ بَصره على خطِّ الترعة يتوخَّى الوحشَ الضاري القادم بأنياب كسراته ومعداته العبوس، يجلس على مكتب معديّته العتيق أمام علبة التبرعات التي باتث تشكو جفاءَ القطع المعدنية لها، وخلفه حجرته الصغيرة التي تجري تحتها الترعة.

مرَّت أيامٌ وأيام، تنامَى إلى مسمعه بدءُ الردم في مناطق بعيدة

ليكون إعلانًا بأنَّ النهاية قد اقتربت.

أخبار كان لها كلُّ الأثر السيّئ على نفس ذلك الطاعن في السِّن ومعديّته التي تكبره. قلَّ حماسُه المعهود وتوقفت يدُه العاملة في كل ركن من أركان المعدية.

انقطع صوتُ مذياع المعدية، تراكمتِ الأتربة على مصباحها،

لأوَّل مرةٍ تنفكُّ أحد خَشباتها وتتراخى وصَلاتُها ولا ينزعج لذلك «صابر»، قلَّ هندامها الأنيق، ذبلت بعضُ زهور جنباتها..

خوفُه من أن تهدَم جعله ينسى رعايتَها، قلقه شلَّ حركاته القليلة، حتى ملامحه تراخت عن ذي قبل، حزنٌ شديد يتملكه وسطَ فرحة المحيطين.

كلّ يوم يقترب فيه الردمُ تزداد ضرباتُ قلبه المتعَب، وأنفاسه أصبحت ضيقةً حرجة أكثرَ من ذي قبل، قد فعل به القلقُ والخوف ما لم تفعله الشيبة والشيخوخة.

قلَّ نومُه ليلًا وكأنه يخشى إنْ نام تهدَّم، يجلس في ثبات كلَّ ليلة يضع رأسَه على يديه المبسوطتيْن على سطح مكتب المعدية، ينظر إلى قطع الليل الداكنة على طول الترعة يترقب خروجَ ما يخيفه من بين ثنايا الظلام.

في الصباح الباكر من ليلةٍ كان نومها عزيزًا، يأتيه زائرٌ من الجهة التي يولي إليها وجهَه، يدرك للوهْلة الأولى أنه من رائحة ما يخافه، لا سيَّما وأنه بملامح وهيئةٍ غير معتادة على مَن حفظ كلَّ وجوه

العابرين والقاطنين حوله.

اقترب أكثرَ فأكثر من المعديّة حتى صار أمامه، وأخرجَ بعد سلامٍ روتيني ورقةً من جيبه ناولها له ثمَّ حدثَه.

«هذا أمرٌ بالإخلاء يا عمّ «صابر»، لا بدَّ أن تخلي المكان، وتأخذ كلَّ متعلقاتك؛ سيكون هدمُ المعدية وردمُ الترعة عندَك الأسبوع المقبل، أمامَك أسبوع كامل لا بدَّ أن تُخلي فيه، أسبوع يكفي لكي تنقلَ كل متاعك من هنا، وقت الردم لن يُسمح بأيِّ تواجد هنا، ولن تستطيع أن تأخذَ أيًّا من متاعك، والآن عليك أن توقِّعَ على الإخطار بذلك».

ما إن سمع حديثَ الرجل حتى انتفخت أوداجُه، وتحفَّزت قسماته المتدلية، ونهض في غصب ممزقًا الورقة؛ ليهبَّ في الرجل:

- لن أوقِّع ولن تهدمَ المعدية، هذا إرثي وتاريخي وليس لحكومتكم حقٌّ في أن تهدمه، هذا بيتي ونفسي وأصْلِي، هذا نَبتي وأرضي، ولن أترك أرضي، ادفنوني تحتَها إن أردتُم لكني لن أتركها حيًّا.

ليذهبَ من أمامه الرجل وهو ينعته بالجنون، محدِّثًا نفسَه «أيّ إرث وتاريخ في هذه المعدية البالية!».

***

تتسرَّب الأيامُ السبع مُهلة الانتظار سريعًا سريعًا، كلّ يوم يمرّ تكون العديدُ من المحاولات من الأهالي لـ عمّ «صابر» أن يُخلي وينقل أشياءه، الكثير عرضَ عليه الاستضافة، وعُرض عليه أيضًا أن يسكن مسجدَ المنطقة إن كان يأبى المُغادرة بعيدًا أو يثقل عليه أن يقيم

عند أحد، وهوَ هوَ على حاله لا يتزحزح قيدَ أنملة عمّا أراد ونوى حتى مع ظهور المعداتِ في اليوم الثالث، ووضعت قناطر حديدية للعبور بالقرب من المعدّية استعدادًا للردم، كلُّ ذلك لم يثنِه، مازال يراهن على الوقت يتمسَّك بآخر لحظة له عليها، يأبى التسليمَ للواقع، أصبح وحيدًا في أمنيته وهمِّه ومعاناته وجلسته وسهره وقلقه، بل أصبح في هذا اليوم الثالث الوحيدَ الذي يسكن المعدية، نعم لأوَّل مرةٍ تعاني المعدية هذه المقاطعة والهجرَ من الأقدام، أصبح الناس يمرون على القناطر التي وضعَت لتساعد عمالَ الرَّدم؛ فهي أسهل في العبور منها التي تستلزم الهبوطَ على سلالمها للعبور ثمَّ صعود سلالم الجهة الأخرى، الآن فقط شَعروا بإرهاق المعدية ومعاناة المرور عليها، بعدما أتيحَ لهم الأيسرُ ليَهجروها لتموت معنويًّا قبل هدمها الفعلي، ويكون الهجر للمبنى من بعد هجرِها كمعنى.

جاءَ اليومُ المنتظَر بصباح مترنِّح كان يودُّ أن لا تطلع شمسُه حتى لا تهدَم المعدية، صباحٍ كان بعدَ ليلة كئيبة لم تسكن فيها عينُ «صابر» وهو يفكر في مجهول ينتظره.

تساوتِ الأرض التي تسبق المعديّة، التحمَ الجانبان بعد فراقٍ دام لسنواتٍ طويلة، كلّ الآلات تفرَّغت للمعدية حتى تذهب لما وراءها.

وكأنها الحصنُ الأكبر في طريق الردم والحصنُ الأهم؛ لذلك لم ينتظروا أن يستتبَّ الأمر لنور الصباح خوفًا من العراقيل؛ فما أن انفلقَ بعضُ سنا ضوء النهار حتى خرجَ من باطنه سوادٌ عظيم يتمثل في جَحافل من عساكر الأمن المركزي ومركباتهم المصفحة.

مشهدٌ لم يكن فيما تمَّ من ردمٍ سابق، لكنها المعدية ورفض شيخِها الطاعن للإخلاء.

تجمَّعت الجحافلُ خوفًا من أن يعطل الردم أحدٌ مع صاحبها، لكنه لم يكن ثمَّة متضامن مع «صابر» سوى صبرِه.

قواتٌ كبيرة ومعدات ضَخمة تحاوطها من كلِّ مكان، استيقظ الأهالي المُتبقين على وقع الاصوات.

الكلُّ يتابع من الشرفات لحظةَ السقوط للهرم الذي طالما شاهدوه شامخًا يتابعون كيف ستهوي أيامهم الخالية على متنِها.

وحدَها «نادرة» بائعةُ الجرجير على متن المعديّة صاحبة العم صابر في البأس والشقاء والضياع؛ تقف بجواره تستنجدُه في الخروج وهو مازال يأبى، حتى توجَّهت هي برفْع بعض أشيائه في عجلةٍ تنقلها للبر الآخر، تحاول نقلَ الأهم ثمَّ الأهمّ، وما تصل إليه يداها من أشياء يسيرة، و«صابر» كصنمٍ مَنحوت على ملامح غاضبة مكفهرَّة لكن دونَ حركة، وكأنه مخمورٌ من صعوبة المشهد، بينما «نادرة» تنقل بلهفة وعشوائيةٍ حتى دخل إلى المعدية أحدُ ضبّاط الحملة، وأمرها هي وعمّ «صابر» بالخروج، حتى يتمكن العمالُ من الهدم، هو ما قابله العمُّ بالرفض، حتى توافدَ بعضُ الضباط لإقناعِه بالخروج ومعهم «نادرة» حتى لا يتعرَّض لأي أذًى وهو على رفضِه مقيمٌ لا يتزحزح من مَكانه، حتى تهاوت على قدمِه باكيةً تترجّاه، أنهضها من رقدتها واحتضنَها، وحملَا نفسيْهما بخطواتٍ متثاقلة متعثّرة في أيامهما وحياتهما على سطح المعدية.

خرجَ «صابر» راضخًا لتوسُّلاتها ونداءات الأهالي بعينٍ تحبس خلفها أنهارًا من دموع تتأهَّب للانفجار.

ما إن عبرَا إلى البرِّ الآخر وبدأتِ المعدات في الاقتراب وأمرهم مديرُ الأمن بالهدم، دخلتِ الآلات في أساس المعدّية الضارب في الأرض تجتثُّه حتى مالت قليلًا تأبى السقوطَ بالكلية، فإذا بأتربة أشجارها تغشَى المكان، وتتطاير مذعورةً العصافيرُ التي طالما كانت آمنةً في جوف أشجارها.

ما أن رآها «صابر» حتى تقدمَ بجنون نحو مديرهم، يوكزُه على صدرِه ويصرخ فيه أن يأمرَهم بالتوقف.

وكزَه صابر بغيظٍ دون أن يقيم لرتبتِه ومقامِه الرفيع أيَّ تقدير، غائبًا عن وعيه، مفجوعًا في حبيبته.

رأى ذلك أحدُ المجندين فهَرول بشدَّة نحو «صابر» يدفعه عن مدير الأمن، لكنها رغمَ بساطتها دفعةٌ لم يتحمَّلها جسد تخطى الثمانين من عمره وهذا العودُ النحيف، دفعة زلَّت قدمه الهزيل فانزلق بجوار المعديَّة من الجهة التي لم تردَم بعدُ ساقطًا في قاع الترعة التي عاش طوالَ حياته يؤمِّنُ المرور عليها، وفي المياه التي عاش حياته فوق سطحِها!

(10)

"جبر"

على عكسِ العادةِ كنا نذهبُ نحن لملكِ الموتِ، نجتمعُ متكدسينَ في صالةٍ كبيرةٍ أصغرُ من كتلتنا، بحوائطٍ زيتيةٍ مزينةٍ بعبثِ كشطِ أقلامِنا كآثارٍ شاهدةٍ على أمواتِ دفْعاتٍ من قبلنا.

ننتظرُ أن يأتي إلينا ويتفحصَ الوجوهَ ويلتقطَ ضحيَتَه.

في تمامِ السابعةِ مساءً في موعدِه المعتاد يأتينا بغتةً! يسبقه قرعُ نعليه إلى آذانِنا فتَشخصُ أبصارُنا نحو الردهةِ الطويلةِ المؤديةِ إلى مساحةِ تكدُّسِنا، نرمقُهُ جميعًا بخطواتِهِ المتأنيةِ عن قصدٍ إمعانًا في إطالةِ وقتِ رهبتِنا حتى يطلَّ علينا بصمتٍ يُخرسُ أفواهَنا.

يقتربُ رويدًا رويدًا فتقلُّ الهَمهماتُ بكل خطوةٍ يخطوها حتى إذا ما تغشّانا سقطتْ ألسنتُنا إلى دواخلِنا فلن تسمعَ إلا عطسةً أجرأ ممَّن حاولَ أن يكتُمَها أو تجشُّأ أحمقٍ يريدُ أن يسلمَ صاحبَه.

وصلَ أخيرًا إلى منتصفِ القاعةِ بالتحديد عند سويداءِ قلوبِنا، مسح بوجهِهِ كلَّ المكان يمينًا ويسارًا ثمَّ أعطى ظهرَهُ لكلِّ مَن يولّون وجوهَهم شطرَه، ثمَّ اتَّجه نحو السُّبُورةِ وكتب «تمارين على الدرسِ السابق»، وقسَّم السبورةَ ثلاثةِ برازخِ، داخل كلِّ برزخٍ سؤالٌ ليلتفتَ بعدَها إلينا ليختارَ مَن كُتب عليهم السوءُ ثلاثةٌ ورابعهم خوفُهم!

الصمتُ يخيمُ على المكان، أصبح لكل الجمادات صوتٌ عندما توارتْ أصواتُنا خوفًا، فهذه أصواتُ طقطقةِ أخشاب مقاعدِنا، وتلك

تكتكةُ عقاربِ ساعةِ صالتِنا.

الآن، بدأ يتفحَّصُ الوجوه، بلغت قلوبُنا الحناجر، وأعيُنُنا بين نظرةٍ مُرتعدةٍ تراقبُه، ونظرةِ تركيزٍ على السبورةِ نمزّقُ عقلًا واحدًا على مسائلَ ثلاثة في آنٍ واحد، الجميعُ خائفٌ قد تساوى أصحابُ الجدِّ والهزلِ، مَن تمرّ عليه بسلامٍ، نظرة ملكِ الموتِ فقط من يتنفَّسُ الصعداءَ وإن كان ذلك المرورُ لا يَعني النجاةَ الأكيدةَ لكنَّها نجاةُ أولِ لفَّةٍ من عمليةِ التنقيبِ عن الضحايا.

يعيدُ المشوار بعينه مرةً أخرى، بل مراتٍ ومراتٍ، يتفحَّصُ ويتفحصُ، يقفُ عند أحدِنا لثوانٍ حتى إذا ما ظنَّ أنه قد هلكَ أشاحَ بوجهِه عنه ليعذبَ آخرَ.

للأسف، ورغمَ علمي بقواعدِ اللُّعبةِ إلا أنَّني سقطتُ فيها، فقد سمحتُ لبعضِ الاطمئنانِ أن يساورَني عندما مرَّ أمامي دون اكتراثٍ، لا سيَّما أنَّني الطالبُ الذي وصفَه «بالبطل» بعد أن قضيتُ له حاجة، كان ذلك أماني وأملي في أن يُصيبني جبرُه في حصة الجبر، ومنبع العشم أكثر من أنَّ اللفةَ الأولى قد مرت عليّ بسلامٍ.

لكنَّه كان يعرفُ من أين يؤكلُ الكتفُ، فلم يمْهلَني حتى ينتهي الصفُّ ويمرَّ علينا بنظرةٍ أخرى، فقط تجاوزني بزميلين حتى عادَ لي بحركةٍ مفاجأةٍ فقد اشتمَّ أنفُه الحساسُ رائحةَ الأمانِ تنبعثُ من خلاياي، والتقطَ رادارُهُ انخفاضَ حذري وتأهُّبي، لأجدَ وجهَه وأنفاسَه المختلطةَ بالنيكوتين تغْشاني فتحجبُ عنّي رؤيةَ السبورةِ والحياةِ فدخلتُ في دائرةٍ من الغمامِ، فإذا به يأمرُني أن أتوجَّه

لبرزخِ المنتصفِ، وأحلَّ المسألةَ الثانية، فكان جوابي- بعدَ فركِ العينِ واستعطافِ الحدقةِ والقرنيةِ دون جدوى-:

- أنّني لا أرى السبورةَ من الأساسِ.

فإذا المكانُ يرتجُّ بضحكاتٍ غيرِ معهودةٍ في تلك الحصة، وإذا بيدِ ملكِ الموتِ تجُرُّنِي أخترقُ الصفوفَ والمقاعدَ، والتي تمرُّ جميعها على عيني مشوَّشةً قد اختلطت كلُّ الوجوه، وتَماهتِ الأجسادُ في بعضها، وانعجنت، وقد طال الطريقُ من مقعدي في آخرِ صف إلى السبورةِ وهو يسحبُني، حتى إذا ما حطَّ كتلة جسدي أمام السبورة أخذَ يعيدُ على مَسامعي السؤالَ مرَّة أخرى عن حلِّ المسألة الثانية، فقلت له وقد بدأ الغمامُ يرفعُ عن رأسي وتتلاشَى «البكسلة» عن عيني إنَّني لا أعرفُ حلًّا للمسألة. فإذا بكفِّهِ الممتلئ ذات الأصابع المنتفخة يحطُّ كلَّ رحالِها الثقيلةِ على سطح خدّي الواهن وهو يردِّدُ في اشتياطٍ: وأيّ شيء تعرف؟ تكلم.. أيّ شيء تعرف؟

قلتُ بنبرةِ عصفور بليد: أعرفُ.. أعرفُ أنّني «البطل» أنا ذلك الطالبُ الذي جاءَ لك بعلبةِ السجائر، هي كلُّ ما تسلّحتُ به اليوم.

(11)

أمل

انقضى عامان على زواجِهما سريعًا، وانقضى معهما أمورٌ غالبًا ما تلازمُهما من استقرارٍ وسعادة وتفاهم، بدأ يتقلص شعورُهما بالفرحة واكتفاؤهما ببعضٍ عن الدنيا ببدء ظهورِ شيء ما ينقصُهما ويَفتقدانه؛ أنَّهما لم ينجبا حتى الآن.

شعورٌ قد تصاعد جرّاء التَّرقب الشديد للأهل وكثرة الأسئلة الفُضولية من المَعارف، والتكلف بالدُّعاء لهما بالذرية عند كلِّ تجمعٍ أو مناسبة.

كلُّ ذلك كان يصرخ فيهما، كيف لكما أن تفرحَا دون خِلفة، أنتما غيرُ كاملين دونَ ذرية، هناك مشكلة لا بدَّ أن تنظرَا إليها، كفاكما شعورٌ بالسلامة والرضا!

أصبحتْ عياداتُ النساء والذكورة مَزاراتهما الدائمة عن أيِّ مُتنزه ولهوٍ كُرّست لذلك ميزانية وأولوية عن أيِّ شيء.

زيارات متعددةٌ ومتنوعة لم تأتِ بجديد، فقط الكلمة المعتادة «أنَّ الحملَ مجردُ مسألةِ وقت، حيث سلامة الزوجين، هكذا أكدَ كل الأطباء»..

لكن مَن أين سيأتي ذلك الصبرُ حتى يحين الوقتُ المزعوم، والكلُّ من حولهما محيط؟! أصبح الإنجابُ ليس مطلوبًا لذاته؛ وإنما لرفع الضغط والعبء النفسي الواقع عليهما من تأخُّره.

تأثرتْ كلُّ حياتهما بذلك الفقد الذي لم يمتلكاه يومًا، ورهنت السعادة بما هو خارجٌ عن الإرادة، فكثرَ بينهما التحفزُ والشدُّ لأتفه الأسباب.

حياتُهما الحميمية الخاصة لم تكنْ بمنأى، تأثرتْ بهذا فأصبحت فقط لذلك الهدف؛ لتكون النتيجة التي تنتج من الحبِّ والحميمية هي الغايةَ التي لها كل شيء.

أصبح لقاؤهما يُرتَّب بمواعيد دقيقة، وجدول معدٍّ من قبَل الطبيب عليهما الالتزامُ به حتى لا يضيع عليهما اليومُ المبارك؛ يوم التبويض من كلِّ شهر، أكثر يومٍ تكون فيه البويضة مهيَّأة للتلقيح، طريقة لا تروقهم أصبحت ديدنَهم منذ ثلاثة أشهر.

اليوم، جولةٌ حاسمة جديدة، جولةٌ تأتي كلَّ شهر بحسابات دقيقة من الطبيب ومتابعة للبويضة بصور جهاز «السونار».

اليوم صباحًا، لا بدَّ لـ«أمل» أن تذهب لأقرب صيدلية لتأخذ حقنةَ تفجير البويضة «باهظة الثمن»، ويكون الجماع بعدها على الأقل باثنتي عشرة ساعة.

حقنة تأتي ضمنَ برنامج يبدأ بمنشِّطات للتبويض من آخر يوم للدورة، ثمَّ تفجيرٍ لتلك البويضة في موعد محدَّد لتكون متاحةً للإخصاب، ثمَّ مثبِّتات للحمل المتوقع.

نزلت «أمل» في تمام العاشرة صباحًا كما وصّاها زوجها قبل نزوله إلى عمله، نزلت وفي مخيِّلتها جولاتٌ سابقة بذكريات سيئة ليس فقط لعدم ظهور الخطِّ الوردي لاختبار الحمل، ولكن لتلك

الميكانيكية والطريقة المفتعلة لحميميَّتهما.

العملية التي كانت لا تخضع سوى للرغبةِ والمباغته دون ترتيب، الآن رغمَ تباعد أيام لقائهما وادِّخار ذلكَ ليوم التفجير، وما يليه من أيام مُحتملة للتخصيب، أصبح الأمرُ عملًا يريدان أن يخرج على أكمل وجْه؛ ممّا يجعله شاقًّا وثقيلًا، فضلًا عن حالة التحفز والالتهاب التي طرأت عليهما.

تولَّد شعورٌ لم يكن في قاموسِهما من قبل وهو الخوفُ من فشل إتمام العلاقة، وخسارة اليوم والمال المنفَق على دورة التنشيط والتبويض.

تحولَ أمرُ الرفاهية والمتعة المتاحة دائمًا إلى قضاء، لم ينسلَّ الحبُّ من بينهما لكنه ربط ما هو رغبةٌ ولجوء بما هو إلزامٌ وعمل، فتغيَّرت مستقبلاتُ الجسد له بمجرَّد تغير الفكرة والمعتقد.

في ذلك اليوم تُمعن أمل في التزيُّن الذي كانت تأخذ حظَّها منه كلَّ يوم باليسير الكافي لأن تكون غواية مُتنكرة في امرأة، ما جعلها تشعر بشيء من الثِّقل على النفس مما تفعله الآن.

أمّا «طارق» منذ أن بدأ هذه الطريقة من ثلاثة أشهر وهو في ذلك اليوم يشعر بأنه يدفع رغبتَه دفعًا، تلك التي كانت رهنَ نظرة واحدة من أمل، دفعًا قد جعلَه في حرجٍ شديد في الجولة السابقة عندما أعطى بعضَ العَنان لوسواس فشل العلاقة بالولوج لعقله وقتَها، فكادت أن تفشَل بالفعل بعد لينٍ جزئي مفاجئ لم يحدثْ له طيلةَ عامين كان فيهما زخمٌ من اللقاءات وكثرة.

يتذكَّر تلك الليلة «الكابوس» طوالَ ساعات عمله تذكُّرًا يأخذُه من كلِّ شيء، يخشى أن يتكررَ ما حدث من قبْل في لقاء اليوم، يتندَّر على أيام كانت رجولتُه تغيض بالرغبة والثقة.

يعود لنفسه ناكرًا زوالَ الرغبة، ويدلِّل على ذلك أنه يكون قبلَ وبعدَ ذلك اليوم على حاله الطبيعي الدائم.

إذًا المشكلة ليست في اليوم؛ المشكلةُ في تحديد وقتٍ معين، وجعله حدثًا هامًّا، وإدخالِ شعور النجاح والفشل في موضعِ متعة.

لكنْ وما عساه أن يفعلَ سوى الامتثالِ لبرنامج الطبيب، ولعلَّ امتناعَه عنِ الجماع لأيام سابقة تحضيرًا لليوم يكون له الأثرُ الفعّال في إتمام الأمر بنجاح وشغف.

***

دقتِ الخامسة، موعدُ انتهاء العمل والعودة إلى المنزل.

طوالَ طريقه لا يفكر إلا في نجاحِ العملية، ودكِّ تلك البويضة المعدَّة ذات الحصون البالية.

لا يتذكر «أمل» ملامحها ولا «أمل» لينَها الذي يُذهب عنه كلَّ رَهق اليوم ومعاناته؛ بل ولا يتذكَّرها عوزًا كان لا يستطيع منعَ نفسِه منه، يتذكَّر فقط عمليةً يريدها أن تتمَّ على أكمل وجه.

عاد للمنزل، طالعتْه تلك العروس المتزيّنة بخجلٍ غير معتاد، ورمقها هوَ بابتسامة تخفي خلفَها همًّا ما. حاجزٌ معنوي غيرُ مرئي قد ضرب بينَهما.

تزيُّنٌ منها زادٍ بملامحَ باهتة، وثناءٌ منه على جَمالها يحدوه القلقُ من أن يقف حدُّ تقديرِه لذلك الجمال عند الثناء.

جلسةُ طعام هادئة جمعتْ بينهما مواضيعُ متفرقة مفتعلَة هروبًا من شيء ما لا يعرفانِه، نظرات مباشرة سرعانَ ما تنكسر ليلقي كلٌّ منهما ببصره في ركنٍ عن الآخر.

معَ قرب دخول الوقت الأمثل للعلاقة «حسب رأي الطبيب» لا عوزهما، يزداد قلقُ «طارق»، فنتائجُ مقياسِه الذاتي للرغبة في أدنى مُستوياته؛ بل في المستوى صفر، لكنَّه أيضًا يشعر بثمة احتياجٍ آخرَ عاجل وقويٍّ بضمّ «أمل» أو الخلود بين ضلْعيها ولا شيء آخر، شعورٌ مركَّب غريب يتمنَّى الاقترابَ ويخشاه، يشعر بالوحشة رغم الوجود، لكنه يشتاقُ لأمل ما قبل تلك الأشهر.

هذا هو الفقدُ الوحيد الذي يشعره. الآن، يفتقد «أمل» التي يعرفُها عن طفلٍ لم يقابله، ولا يعرف ملامحَه ولم يتعلق به.

يمرُّ الوقت ويمرّ.. دخل الوقت الموعود، وكلٌّ منهما يفتعل عدمَ الاكتراث والعاديَّة، في يد كلٍّ منهما هاتفه.. يضحك هو بصوت عالٍ على «كوميكس» موجِّهًا الهاتفَ لـ «أمل» وهي تتماهى معه بضحكة، ثمَّ تنكبُّ تبحث عن شيء يَصلح أن يكون هامًّا لتوجه هاتفَها له ليشاهد معها، تسامر وتفاعل مُفتعَل.

أعقبَ ذلك هدوءٌ تام بينهما إلا من تكّاتٍ لعقارب الساعة التي تذكرهما عنوةً بوقتهما.

قرَّرت أخيرًا أملُ القيام، وفعلَ ما كانت تؤجِّله، قامت بغسل كلِّ ما

على سطح وجهِها لتعود هي مِن أجل الوضوء للصلاة بعدما فهمت أنَّ الأمر لن يتمَّ بهكذا حال.

انتهتْ من صلاتها، ثمَّ أخذت ركنًا من المنزل تقرأ فيه إحدى الروايات ليباغتَها في مطلعها سؤالٌ كأنه موجَّه للقارئ...

«مَن تفتقد الآنَ ومَن تحبُّ أن يكون بالقربِ منك في رحلتك الخيالية معنا؟».

سؤالٌ ربما لا يظنُّ كاتبه أنه سيكون بهذه الأهمية عندَ أحدِ قرّاءه للحدِّ الذي يجعله لا يتجاوز تلك الصفحة متأملًا في الإجابة.

في عُجالةٍ تناولت هاتفَها والتقطت صورةً لذلك السؤال ومقطعِ الافتتاحية، لترسلَه لزوجها على هاتفِه مصحوبًا بإجابة.

«أفتقدُك أنتَ فقط ولا شيء غيرك، أريد أن أكون بينَك في تلك الرحلة، أريد حضنَك».

ليسرعَ إليها طارق فاتحًا ذراعيه لتسكنَه وهو يردِّد بفِيهِ المكتومِ على أذنها عندما تداخلَا «وأنا أفتقدُك.. أفتقدُك منذ وقت» فيتوحَّدَا من شدَّة التداخل، وينصهرَا لتتمزَّق الروية سحقًا تحت خليطِ جسديْهما.

(12)

نظرة

كنتُ أستغربُ كيف نسجَ يوسف إدريس قصتَه الشهيرة من نظرة، وأستغرب الحبَّ من أولِ نظرة، وأستغرب- أيضًا- حديثَ الدعاة أن النظرةَ سهمٌ مسموم من سهام إبليس؛ حتى كانت نظرتي لها ونظرتُها التي صعدتْ بشخصي إلى أعلى مَراتب الشعور بتميزي ووسامتي.

كانت تجلس بمفردِها على الطاولة المجاورة لنا، وكنت أجلس مع صديقي محملقًا وجهي في وجهِه دون أن أنظرَ إليه كعادتي دائمًا أثبِّت نظري في اتجاهٍ لا أبصرُه لتلاشي أيِّ نظرة عشوائية منّي غير مقصودة في أماكن التجمّعات العامة، نظرة قد تنتهك خصوصيةَ امرأة أو تجعلني لعاشقيْن ثالثًا غيرَ مرغوب فيه.

لكنني- ورغم حذري وكإنسان طبيعي رأسه تتحرك على عمود رقبته- تحرَّكت رأسي بكل ما تحوي من أجهزة حواس، وبالضرورة.. عيني، لألمحَها في الركن المُقابل لي، وبنظرةٍ كنت أتجنَّبها طوال أعوامٍ خشيةَ توبيخ أصعب ما يكون على قلبي، قد استقيت صعوبتَه من تجارب بعض زملائي في الرجولة، فكيف إن كان التوبيخ لي!

لكنَّ عيني- وبعقوق غير معهود منها- نظرت وتسمَّرت تأبى العودة إلى حيطتي المعهودة، لا.. لا، أعتقد أنه ليس عقوقًا من عيني البريئة ولا جرأة تولَّدت للتَّو؛ بل إنَّ الأمر في وجهها هي وليس عندي وكأنه مركَّب على ملامحها مثبّت بصري يخطف الأبصارَ ويذهب بها لعالم سحرِ تفاصيلها.

لكنني- وبعد استجماع نفسي واستيقاظ حذري- قاومت فحرَّكت رأسي التي يبست مفاصلُها من شدَّة الانتباه لتعود إلى أصلها.. إلى وجه «باسم» صديقي، لأقابله بابتسامة بَلهاء فقط لأنالَ تلك الصدقة التي تكون في ابتسامِك في وجه أخيك.

مازال الحديثُ بيننا، لكنّني أصبحت أفتعلُ الإيماءات العميقة وأنا أتحدَّث إلى صديقي، وأعلو بصوتي قليلًا ليصلَها أنّني كاتب، وأنّني أتحدَّث عن الأدب العالمي والنقد.

أتحدَّث كمذيع على شاشة أو كخطيبٍ أمام الجموع الغفيرة، طبَّقت كلَّ دورات لغة الجسد المعطَّلة، واستخدمت مهاراتِ طبقات الصوت، واستدعيت مفرداتٍ يتشدَّق بها جهلاء المثقفين «كالتآكل النفسي وعدم الاكتراث ومعاناة الكادحين وحقّ المرأة في كل شيء وأي شيء» وأظهرت حبّي لنِزار في موضعٍ لا يحتاج لذلك، بينما كنت أتحدث عن «محمد عصمت» وجدْوى أدب الرعب.

أصبحَ حديثي نشطًا، وقد كان الموعد برمَّته من قبْلُ ثقيلًا على قلبي لأوَّل مرةٍ أستشعرُ ما كنت أحدِّث الناسَ عنه دون تجربة، كيف للعامل النفسي دورٌ مهمّ وكبيرٌ في شعورنا بالتَّعب البدني من عدمه.

أتحدَّث وأنا أحاول أن أجدَ إيماءة طبيعية تتيح لي إلقاءَ نظرة أخرى بشكل غير مقصود، حتى أتتِ الفرصة عندما أراد صديقي أن يُسمعني نصًّا جديدًا له ما استدعى وضعَ يدي تحت ذقني واصْطناع التركيز والتأمل بالنَّظر إلى الركن البعيد؛ الركن الذي اتَّخذه القمرُ منزلًا له، أخذ صديقي يقرأ وأخذت أحاول الهبوطَ قليلًا بمستوى

رأسي المُمْعن في التأمل الكاذب لأرمقَها بنظرة.

يقرأ صديقي وأنا أنزل بحذرٍ وبعينٍ تبدو غيرَ مكترثة بما أمامها فقط هي تنظر إلى اللاشيء سارحةً في رذهات النص، أنزل وأنزل حتى تقابلتْ أعيننا. نعم، وبنفس طريقتي كانت تتأمَّلني ساندةً رأسَها على قبضة يدها من عند الذقن.

تنظر لي.. نعم هي أيضًا تنظر

لا.. لا، بل سارحة مثلي في الملكوت، وهل أنا سارح من الأساس!

لا.. لا، هي تنظر مثلي. نعم، تنظر.

وعلى وقْع تفعيلات صديقي وشِعْرية شِعره كانت نظراتُنا المتبادلة، كان وجهُها نصًا لا هنةَ فيه ولا كسرًا عروضيًّا؛ صورةٌ جمالية غير مَجازية، وجهٌ مُصهد من حرارة الجوِّ، مندَّى بالشهد، تلتصق بعضُ شَعراتها على جبهتها من أثر ذلك النَّدى، مُلفحة خدودَها بحُمرة طبيعية، وبلمعةٍ دهنية بسيطة تؤكدُ على حيوية مسامّها وتنفسها، عينُها واسعة، زاد من قطرِها ذلك السياج الأسود من الكحل حولَها، وجهُها بتفاصيله كأنه مرسومٌ بقلم شديدِ السواد على سطح لبن مصفًّى، تتناثر على صفحة وجهِها البيضاء بعضُ حبّات الكريز الملتهبة.

مازال صديقي يقول شِعره، ومازلت أستشعرُ نصَّها الحيَّ أمامي، حتى أعادني صوتُ «باسم» الأجشّ إلى عالمنا ونصِّه المصنوع عندما سألني عن رأيي.

قلتُ وبكلِّ صدق: وددتُّ لو أطلت.. منذ مدَّة ليست بالقصيرة لم تأخذني قصيدةٌ مثل ما أخذتني.

اندمجتُ في الحديث معه عن فنّيات نصّه الذي لم أحضرْه بسماعي بينما يتقلَّب في رأسي سؤالٌ واحد: هل بالفعل كانت تنظرُ لي مثلما أنظر لها، أم هو خيالُ الشِّعر والقصائد وتمنّي الحالة قد أوهمني؟!

عزمتُ على التأكد، فكانت فكرةُ القيام للذَّهاب إلى دورةِ المياه الذي يسمح الذهابُ إليها بالمرور من أمامها، وأراقب هل مُروري أمامها قد استرعى انتباهَها أم لا، وهل ستتبعني بناظريها أم تتجاهَل!.

أنهيتُ رأيي المُفبرَك في قصيدة صاحبي، واستأذنته للذهاب إلى دورة المياه، ثمَّ استرقت نظرةً خاطفة عليها عند قيامي، فإذا بها تنظر، مررتُ من أمامها ثمَّ لمحتُها بطرفٍ خفي فإذا بعينيها تَصحبني في طريقي.

دخلت إلى دورةِ المياه التي لا أحتاجها، وأخذت أنظر إلى المرايا بطريقةٍ طفولية، وبفرحة بلهاء، وابتسامة نصرِ المتأكّد من أهميته.

أتعجَّب كيف لنظرةٍ تمنحني كلَّ هذا الزهو! كيف لنظرة تحلُّ محلَّ التكيف فتجعلني مكتفيًا بهواء مروحة الكافيه المثخنة من الحرّ؛ بل وأشعر بكلِّ لطفِ العالم وهوائه! كيف لنظرةٍ تجعلني أتجاوزُ الأحزانَ لأبتسم وأتفاعلَ وأراقب.

قطعتُ سيلَ فلسفاتي وتأملاتي بأن عليَّ الخروج الآن، والنظرَ بكلِّ

قَصديةٍ وعمدٍ على تلك الفتاة التي أومأت لي بطريقتها على قَبولها لنظراتي بل وبادلتني بها.

عليَّ الآن التحديقُ دونَ قلق وإرسال رسالة مباشرة بإعجابي، فليس ثمَّة شواهد أدقُّ وأصدق من ذلك.

خرجتُ مسرعًا للتَّو، وعيني من قبْل خروجي موجهةٌ نحو ركنِها الملكي، لأقترب.. ثمَّ أصل وأجدُ مقعدَها فارغًا، ولا شيء حتَّى يَشي بجلوسها هاهنا من مخلَّفات تبغِها أو ورقياتِ عبوات السكر التي كانت تستخدمها، لأهرولَ دون تلكُّئٍ نحو مدخل «الكافيه» وأحدق بنظراتٍ مُستباحة سيئة السُّمعة في نساء الشارع لعلّي أجدها، لكن دون جدوى، فقط توبيخ واستهجانٌ من سيدة قد اخترقتُها بنظرةٍ هَوجاء من طلقاتِ بصري ببحثي الجنوني عليها.

(13)

خوف

- بماذا أشعر!

كم صعبةٌ للغاية الإجابةُ على الرغم من مَجيئي من أجلها، صعبة كتكدُّس مميتٍ في مساحة محدودةٍ ينتظر ممراتٍ آمنةً تفتح له، وعندما تفتح يكتشف أنَّ المشكلة لم تكن في عدم وجودِ الممرات فحسب، ولكن في تَنظيم خروج الملايين من المختنقين دون حدوثِ أضرار التدافع.

بما أشعر. أنا أشعرُ الآن بالعجز عن توضيح شعوري.. لكنَّه ضيق ها هنا في صدري كأني أصعدُ للسماء، أو كتمان للأنفاس كأنّي تحت الماء، ودقاتٌ للقلب تتسارع كأني أهربُ من وحش كاسر.

أنا.. أنا خائفٌ جدًّا يا دكتور.

- خائف من أيِّ شيء؟

- مِن كلِّ شيء وتلك هي مصيبتي، الخوف يطلُّ عليَّ من كلِّ موقف وكلمة، وتقاطع مع البشر، الخوف يطلُّ عليَّ من الأمان ذاته!

لديَّ عقل لا يتذكر من حديث طويلٍ لساعات سوى كلمةٍ عابرة كانت لثوان، عقلٌ لا يحتفظ بعبارات الاطمئنان، ويمحي بشبه كلمةٍ من ذمٍّ صفحات من ثناء، عقلٌ بارع في البحث فيما وراء الأحداثِ والكلمات، ودائمًا لا يرتاح إلا للتَّفاسير المزعجة، وبالٌ مشغول برهْق باله.

وكأنّي أحتاج إلى تعطيلٍ للعقل، واستصالٍ للحسّ والشعور.

- ولماذا لا يكون ضبطٌ للعقل وتحكمٌ وتنظيم للمشاعر؟ لماذا ذهبتَ للاستئصال دون الإصلاح؟

- لأني يئستُ فأصبحت أؤثرُ الراحة التامة، وإن كانت راحة الأموات دونَ تفاعل فشلت في تنظيم مشاعري فبتُّ أحتاجُ إلى تعطيلها، أعلمُ أنَّ ذلك لن يأتي لي بالسعادة، لكني أريد فقط إيقافَ تعاستي وإن أصبحت جمادًا.

- تلك مرحلةُ الموت وليس لأحدٍ قدرةٌ عليها سوى الله، أمّا الآن أنتَ في الحياة، ووظيفتي أن أساعدَك في أن تحياها لا أن أجهضَها من داخلك.

- وإن قلتُ لك إنها أصبحت عبئًا أودُّ التخلصَ منه، لكن يحول بيني وبينَها أمورٌ معلّقة في رقبتي ليس فيها أمرٌ واحد لي.

- أنتَ لا تكرهها على الإطلاق، وتلك هي المفاجأة، أنت تكرَه فقط ما يحول بينك وبينَها، أنت أردتَّ الاطمئنانَ لكلِّ شيء فأصابك القلقُ من كلِّ شيء ولم تسمحْ لنفسك بالتعامل الطبيعي مع نسب المخاطر الطبيعية في الحياة، تمسُّكك بها بشدةٍ أوجع يدَك وأتعبك تحفُّزك الدائم.

أريدُ فقط أن أسألك سؤالًا سيحدِّد طريقتَنا القادمة، ومِن مُعطياته السابقة سنعلم النتائج...

«كم من المخاوف التي تخيَّلتها وذهبَ إليها عقلُك حدثتْ بالفعل

كما تخيَّلتَها؟!».

- في الحقيقة، لا.. لا، الإجابة لن تنفعني يا دكتور، أنا خائف فحسب، وليس دليلًا أنَّ ما لم يحدث لن يحدث، أو نسبة الحدوث ستكون هي هي.

- أنتَ محقّ، لكنّي أريد إجابتك، وأريدها بكلِّ وضوحٍ مكتوبةً الآن في قلبِ تلك «الروشتة» التي ستكتبها لنفسك في أول جلسة.

دعْني فقط أكتب لك السؤالَ بخطّ يدي في أوَّلها لتجاوب تحتَه بيدك.

«كم مرَّة حدثَ ما تخيَّلت من مخاوف، وارْصُدها بالتحديد إنْ هذا حدث».. ولا عليك من الورق، خذْ كلَّ دفتر الروشتات.

...

.....

.....

.....

- الإجابة:

«كلّ الذي خفتُه لم يحدث، ما حدثَ أنَّني فقط خفت!».

- إذًا، عليك بتناول تلك الحقيقة بعقلِك ولو لمرَّة واحدة قبلَ اللقاء الثاني.

(14)

الأجرة

كالعادة، قام الراكبُ الجالس في منتصف المقعد الخلفي للسائق بمُناولة الأجرة بعد أن ضنَّ بجهدِه فى احتسابها، مكتفيًا بما عاناه في جمْعها وهو لا ناقةَ له ولا جمل في الأمر.

فقط، اكتفى بإيماءة لوجوهِ الركاب بنعم.. عندما سألَهم:

«كدا الكلّ دفع يا حضرات، كان يودُّ فقط أن ينتهي من ذلك الاختبار الصَّعب والمسئولية المَقيتة التي ألقيت على كتفِه، لا لشيء سوى أنَّه جليسُ ذلك المقعد في منتصفِه، موقف كان يتَحاشاه دومًا، وكان يتمنَّى أن يجتازَه يومًا، حتى لا يكون تَحاشيه عن عجز أو ضعف، مهمةٌ زاد ثقلُها «الربع جنيه» الذي أضيفَ على الأجرة، ونُدرة تلك الفئةِ من العملة ما يؤدّي إلى نشوب الكثير من الجدل حول الباقي.

أخيرًا تنفَّس الصعداء ورفع كتفَه وهو يكتنفه شعورٌ بالإنجاز بعدما ألقى بالأجرة في يدي السائق، والذي قام بدوْره بمهمَّته المحبَّبة إليه أن يحسب أجرتَه مع رشفات من الشاي وسيجارة في نفس اليد، وطارة القيادة وعصى السرعات في آنٍ واحد!

باءَ ظنُّ صاحبنا بالفشل؛ فالأمر لم ينتهِ بإعطاء الأجرة للسائق، بل كانت بداية المَلحمة اليومية عندما أدار إليه السائق وجهَه قائلًا:

«الأجرة ناقصة واحد يا صاحبي»

بتحفّز لتلك اللحظة وبردٍّ معدٍّ أثناءَ فترة مشقة لمّ الأجرة، قال جليسُ مقعد المسئولية:

«الأجرة تمام يا أسطى، وكلّ الناس دفعت»

وكعادةِ سائقي الأجرة في هذه المواقف، قام السائق بالوقوف تجاهَ اليمين وأطفأ محركَ سيارته، ليعيدَ مطالبته بذلك الفرد، بنبرةِ غضبٍ وسخرية:

- العربية اتناشر جثّة، من ورا جالي منهم حِداشر، كدا فاضل جثة، ومش هاطلع إلا لمّا تكمل أجرتي.

الأمر الذي أثار حفيظةَ أحد الركاب ليردَّ عليه:

«إحنا مش جثث يا أسطى لو سمحت، ويلّا بقى عشان هنتأخَّر على أشغالنا».

فكان ردُّه: «ودا شغلي وانا بيطلعلي كام عشان كلّ دور أسيب نَفَرا! مش هاطلع إلّا بالأجرة كاملة».

ثمَّ أردف:

«كلّنا جثث ماشية ع الأرض، ولها أوان عشان تنزل تحت».

ثمَّ استدار برأسه ليعيد الأجرة إلى ذلك الراكب البائس، ليقوم بردِّ كلِّ النقود إلى أصحابها حتى يتمكَّنوا من معرفة «الناقص»، الطريقة المتَّبعة دائمًا، ليس فقط لأخذ الأجرة منه، ولكن لإظهاره للجميع وفضحِه وتوْبيخه على هذه العَطَلة.

زادَ الهرج، تداخلتِ الأصوات، الكلُّ يُطالب بحقِّه بعشوائية.

أصواتٌ تتقاطع...

- كنت عَاطيلك ميّة منها اتنين خدِ الباقي وهاتِ الميّة بتاعتي، ـ وأنا ليّا واحد م العشَرة..

وصوت يزغدُه عن جانبه بتهكُّم من إحداهنَّ التي تأخرَ عليها بردِّ ورقتِها «الخمسين».

- يا اخويا بقولّك ليّا خمسين ضارب لخمَة ليه، مش حسبة برْمَة هي .

ومسنّ في الخلف يلعَن الآلة الحاسبة التي عطَّلت الأدمغة هي وتعليم بلادنا المتردي.

مُطالبات هنا وهناك، مُزايدات وتهكُّم حتى تمَّ الأمرُ بشقِّ الأنفس.

الجميع قد تفاعلَ وطلب وأخذ..

فقط رجل مُسِن يقبع في المقعد الخلفي لم يتحرَّك ولم يشاركْ في الجدال يسند رأسَه على زاوية السيارة من الخلف.

توجَّهت كلُّ الأنظار إليه بالتَّتابع حتى استلمَها الجالس بجواره فوكزَه برفقٍ عن جانبه وهو يناديه:

«يا حاج، أنتَ دفعت؟» فلم يردّ، ظنَّه نائمًا، أعادَ الكرَّة فلم يرد، فقام بهزِّ جسدِه وهو يناديه بنبرةٍ أعلى، فإذا برأسِه المسنَد يسقط في انكسار، فأخذَ الرجلُ يعبث به ويقلبُه يحاول أن يسمعَ نبضَه،

خاصَّة بعدما أوشتْ طريقةُ سقوطة بغيابه عن الوعي، الكلُّ يترقب.. أيادٍ من الأمام أخذت تجسّه وتحفّزه، كلُّ الأنظار أصبحت ترمقه بقلق.

حتى تحدثَ مَن كان بجواره يُخبرهم أنَّ غالبَ الظن أنَّ الرجل قد مات!.

زادَ الجدل مرَّة أخرى في السيارة، منهم مَن يرجِّح أنها ربما إغماءة أو شبه ذلك، حتى أخرجوه في الهواء الطَّلق كما قالت صاحبةُ المقعد الأمامي جوارَ السائق، وكما أخبرت أنَّها مُمرضة.

مدَّدته تلك الممرضةُ على الرصيف بمساعدةِ رجال الحافلة، وأخذت تقيس العلاماتِ الحيوية حتى تأكدتْ بالفعل من وفاته، وأنه الجثةُ المفقودة التي كان يبحثُ عنها السائق.

سكنَ الجميع في حضرةِ الموت، ونسيَ المتأخرُ عن العمل عمله، والسائق أجرتَه، حتى أشار أحدهم على السائق أن ينال الثوابَ في إيصال ذلك المتوفَّى إلى أهله خيرًا من أن يتركه في مستشفى قيد الإهمال، وأن يُكرم فى بيته بعدما علموا بموقعِه من بطاقته، وأنه قريب من تلك المنطقة التي خرجت منها السيارة، ولم تبرحها بالكثير.

وهو ما تلقّاه السائقُ بالقبول شَريطة أن يذهب معه أحدُهم كشاهدٍ على الواقعة، فكانتِ المبادرة من ذلك المتأخر.

جمعوا الأجرةَ مرةً أخرى وزادوا عليها لأجلِ الفعل الذي سيؤدّيه السائق وهو ما قُوبلَ من الأخير بالرفض، وأنه احتسبَ عملَه لله، قد

اكتفى بتلك الجثة لتكون بركةً يومه.

(15)

الشيخ أحمد

على الرَّغم من غرسِها بعيدًا عن أقرانها إلا إنَّها مُحاطة بالأناسي من كلِّ حدبٍ وصوْب.

مَزروع حولها الراغبون وأصحابُ الحاجات، مدسوسٌ بين طبقات تَجاعيدها الليفيَّة، مَطويات يسكنها أمنياتٌ ودعوات ورجاءات.

جذعُها المَحني من بداية خلقِها قد زاد أنحاء من أحمال المحتاجين، ومِن تعلُّقهم بزعفِها المتدلّي، ومِن اتِّكاء مَن خارتْ قواهم على عودها.

رطبُها يساقط دونَ اهتزاز قد رفعَ الحرجَ عن ضعف أولئك الزوار.

يُجاورها قبرٌ مَطليٌّ «بالجير»، مقطوعٌ من شجرة القبو، مُحاط بالأحياء، مَبدور في محيطِه الحبوب للطيور، مُحاط بأوعيةِ الماء الفخارية وزَرعات الصبّار، معمر بالكثير من أعمال السبيل العشوائية من مبرّدات للمياه، ودِكك للجلوس مُعَنونة بأسماءٍ لموتى يُسأل لهم الدعاءُ قد تركوا مَن يظلُّ رافعًا لذكراهم.

صبيةٌ بجَلابيب متَّسخة يتمرَّغون لعبًا في أوْحال محيطِ النخلة والضَّريح، طبولٌ فخارية تُباع، ولُعب للأطفال، قصص مَبتورة هنا وهناك، تدورعلى الآذان عن كراماتِ الشيخ والنخلة التي لا ينضبُ رطبُها، زائرون يفترشون الأرضَ بأمتعتهم، نساءٌ متوشِّحات بحاجتِهم التي لا تُخطئها عين، يهمسون تارةً عند القبرِ وتارةً في إذن النَّخلة

عند أحد قشورها الليفية.

يخيَّل إليك بانحناءِ جذعها أنها تُخفض لهم جناحَها من الرحمة وحسن الاستماع لشكواهم، وهنَّ يُهَمْهِمن لها بالخِلفة والعزمِ للرجال.

هكذا كلّ أيام النخلة والقبر لا يفقدان الأنسَ، ولا يُتركان لوحْدة، فضلًا عن يومِ مولد «الشيخ أحمد» تتضاعفُ الأعدادُ، ويصعب الوصولُ إليهما، الكثيرُ يرمقهما من بعيدٍ وهم يُودعونَ بشِفاهم طلباتِهم وعوَزَهم من بعيد.

***

في يوم المولدِ السنوي، وفي الموعد المُعتاد بعدَ صلاة العشاء تُعلق مكبراتُ الصوت، وبعدَ تلاوة قرآنية افتتاحية قصيرة، تبدأ رحلةُ القصِّ المعتادة لتلك الحدوتة التي لا يملُّها أهلُ الموقف من الذين قد سبقَ لهم الاستماع إليها.

بل وينتظرون مقطعَ البكاء ليتباكوا، لعلَّ ذلك يكون دعمًا لاستجابة دعائهم وتوسلاتهم.

(ابني الشيخ «أحمد» كان ريحانة القرية، ومصباح البيت الأوحد، ربنا أرسله عطيَّة بعد طول انتظار ويأس، حفظ القرآنَ وهو ابنُ السابعة، كان جميلَ المُحيّا حلوَّ الطلَّة، كان عطرُه يدلُّ على مَسيره من الشارع، كان يقرأ على الأموات مجانًا، وإمامًا للتراويح وهوَ ابن عشرة ولم يتجاوز العشرة).

هنا، قد غلبتِ الدموعُ الرواي فصمتَ قليلًا، ثمَّ أكمل:

(حتى جاءَ اليوم الذي افتدَى فيه ابني القريةَ كلَّها من مجزرة دم و»تار» عندما سكنتْ صدرَه رصاصةٌ وقتَ عودته من المسجد، رصاصة كانت تقصد «عبد الباقي» ابن عائلة «الزغبي» في الخناقة مع عائلة الرويعي.

موتُ الشيخ «أحمد» قد أوقف ضربَ النار ودقّات قلبي كمدًا، وهدأت المعركةُ لتنشبَ في صدري وصدرِ زوجتي.

موتُ الشيخ «أحمد» قفلَ دارَنا بالحزن والقهر، وأخفت صوتَ القرآن الذي كان يحبُّ فاهَه.

ذهبتْ عنّي عطيةُ الله ليصبح الشيخ سببًا في العطايا للغير.

ماتَ الشيخ ليُحيي المنطقة بضَريحه وأنوارِ مولده وبركة زوّاره).

انتهى كلامُ الشيخ الطاعن بعدَ سطوة البكاء على الحكي، البكاءُ الذي كان يطلُّ مبحوحًا بين وقفاتِ وهنَات حديثه.. ليبدأ «حميد» مرحلةً أخرى من القصّ، في ترتيبٍ يحدث تلقائيًّا كلَّ عام دون اتفاق أو إعداد.

(بعدَ الموت بثلاثة أشهرٍ زارني «أحمد» في المنام، وكان حزينًا جدًّا على عكسِ ابتسامته المعتادة وبَشَاشة وجهه، زارني قبلَ الجميع لأنّي كنت أقربَ أصدقائه، مَن يُصْدُقه ويُصَدِّقه، وقبلَ سؤالي عن سبب حزنه كانت إجابته..

«أنا متأذّي جدًّا من قبري، انقلوني مكاني»

سألته: أيّ مكان؟

وصفَ لي هذا المكان هنا، وأعطاني دليلًا عند فسيلةِ نخلةٍ وحيدة، والدليل الثاني إنّ جثته لن تتحلَّل وكأنه ماتَ الآن، وأنَّ وجهه سيكون مبتسمًا عند فتح القبر عليه.

رويتُ القصة للحاجّ «عمران» وتهللَ وجهُه للبُشرى، لكن الأمر كان صعبَ التنفيذ، وأن ننقل الشيخ هنا.

لكنَّ الشيخ بدأ يزور الكثيرَ من أهل القرية، ويشتكي حزنه، حتى شاعَ الأمرُ، وتجمَّع الأهالي وكلّ مَن زاره الشيخ، وكلّ مَن سمع الخبر مِن القرى المجاورة، فكان الاقتراحُ الذي توافَقنا عليه هو الذهابَ للمركز وطلبَ نقل الجثمان، ذهبْنا حشدًا إلى هناك ورَوَينا الخبرَ للشاويش عبد المسيح).

انتهى حديثُ «حميد» ليدخل عجوزٌ على خطّ الحكاية، ويتناول «الميكروفون»:

(أنا الشاويش عبد المسيح، بالفعل هذا ما حدث، ودخلت بعدَها للضابط وأخدتْ إذنًا منّه نلبي لأهل القرية مَطلبهم، خاصَّة إنّ عليه إجماع من كبار أعيان القرية والأهالي والعمدة.

وافق الضابط، بل وذهبَ معي، مع أهل القرية المُحتشدين والذين رفضوا أن يؤجَّل الأمرُ لنور الصباح، وقد دخلنا وقتَ الغروب، لكنه كان مشهدًا مَهيبًا ونحن نسيرُ وتتبعنا الجموعُ بجذوات النار.

وصلْنا للقبر، ما إن فتحناه حتى خرجتْ منه رائحةٌ طيبة تعمُّ المكان، وإذا بالكفن قد بَلِي دون جسدِه، ليظهره لنا إلا في مواضع عورتِه وموضع جرحِه كأنه أمرٌ متعمَّد ألا نرى منه سوى كلِّ حَسن،

وجهه مكشوف وصَبوح، ما إن نظرناه حتى ابتسمَ لنا ابتسامةً عريضة ونحن نحاول حملَه من مَرقده، وكان جسدُه دافئًا ليِّنًا كأنه في نومة عميقةٍ لا موت، ليخبرَ بذلك أحدُ مَن كان بجوارنا تلك الجموع الغفيرة خارجَ القبر فتنطلقُ الزغاريد والأعيرةُ النارية، لنسيرَ بالجثمان في جنازة مَهيبة تختلط فيها أصواتُ الفرحة والأدعية الدينية والمزمار البلدي، كأننا نذهب به إلى عروسِه وليس إلى قبرٍ وحيد في مكان ناءٍ بعيد).

عندَ ذلك يقف قليلًا الشاويش «عبد المسيح» ليشير على شابٍّ وسيمِ الطلَّة ليأتي إليه ويتأبَّطه ليكملَ الشاويش قائلًا:

(لم تكن هذه كلَّ حكايتي مع الشيخ، بل حكايتي الأهمّ هو ابني..

نعم، ابني هذا.

بعدَ رؤيتي ما حدثَ بعيني ذهبتُ لزوجتي وقصصتُ عليها لتخطرني فكرةً غريبة لكنها رغمَ غَرابتها قد اعترت رأسَ زوجتى في نفس الوقت، لمَ لا ونحن الغَريقين اللذين يبحثَا عن قشَّة.

فقد زرتُ وزوجتي الكثيرَ من أطباء النساء والذُّكورة دون جدوى، وكانت لنا العديدُ من المَزارات الدينية، فلماذا لا نذهب لقبرِ هذا الشيخ الذي رأيت بنفسي كرامتَه في جثته وابتسامته، الأمرُ هنا ليس له علاقة بدين؛ هو رجلٌ يحبُّه الله وكفى، وبالفعل ذهبتْ زوجتى في اليوم التالي ووشوَشَتْ قبرَ الشيح وفسيلةَ النخلة وقتَها- اللّي كانت لسه صغيرة- وقالت «لوِ الرَّب أعطاني ببركتك يا شيخ سأفعل...» واختارت زوجتي نذرًا صعبًا في أوساطنا يليق بحَجم

ما تتمنَّى منذ وقت، لا سيَّما وقد أصبحت فرصةُ الحمل نادرةً لكبرِ السِّن، فكانت المفاجأة بالحمْل بعدَ شهر من تلك الزيارة لننفِّذ غرابةَ النذر ورسالته كما وعدتْ بذلك زوجتي عند قبرِه، وهي ترى حملَها كمعجزةٍ صعبةِ الحدوث ليكون مثارَ جدلٍ ولومٍ من أسرتنا وأقاربنا وأهل ديننا عندما سمَّينا طفلَنا على اسمِ الشيخ أحمد «أحمد عبد المسيح» كما نذرتْ أمُّه!).

(16)

ابنُ بابِ الشعرية

في ليلةٍ شتوية هادئة تمامًا كحالي، كنتُ أنا وقطراتُ المطر وحدنا نمتلك شارعَ إقامتي؛ ذلك الشارع الضيِّق كرذْهة طويلة.

هدوءٌ لليلٍ كان نهارُه هنا مزدحمًا بالأصوات المتداخلة والأجساد المُتقاطعة؛ أطفال يلعبون، ومحالّ قديمة لبيع الكثيرِ من المهملات.

ليلةٌ ساحرة لشارعٍ بدأ للتَّو في فكِّ جدائل شَعره تحت المطر، بعدَ أنِ اطمئنَّ لنومِ عيونِ قاطنيه، ظلامٌ يحتلُّ الأفق إلا من طاقة نورٍ على الجانب الأيمن تنبعثُ من مصباح ورشة عمّ «حسني» لنجارة الأثاث؛ «الصنايعي» الذي لا يحبُّ العملَ سوى في هدوءِ الليل، مُستأنسًا بصوت مذْياعه الذي يحفظ للشارع بقاءَه على قيد الحياة، والذي يمرُّ على أسماعِنا جميعًا كحلمٍ ناعمٍ، ونحن في سباتٍ عميق.

في هذه الليلة، كنت تحتَ مظلَّة بيت قديم أتحاشَى المطر، وأستمع إلى صوتِ ترحيب الأرض به وهو يُعانقها، حتى تداخَل صوتٌ ساحرٌ منبعُه ورشةُ «حسني»، بالتحديد منبعُه الجهازُ الذي طالما كنت أنظرُ إليه على أنه آلةُ زمنٍ أو شيء كمِصباح علاء الدين أو فانوس سحري، نعم كان يشبِه مذياعَ أبي القديم بنفس أتْربتِه وبعض تهشُّمه، لكنَّ الأول يبثُّ دائمًا سحرًا وحلاوة تذهب بالقلوب إلى عالم آخر.

لا أعلمُ هل هذا محضُ خيال تصنعُه حالة الورشة القديمة أو

صدفةُ سماعي لكلِّ حلوٍ ونادرٍ عندما أكون بجوارها.

بدأ الصوتُ القادم يستحوذ على المكانِ والخلفية تكون هي الأساس، وبدأ المطرُ يتوارى خجلًا يُفسح له المجالَ أو أرادَ هو الآخرُ أن ينصتَ معنا فتوقفَ هو والأرضُ عن الهمهمات.

توقَّفتِ الكلاب عن النباح، و«مَزاريبُ المياه» عن الضوضاء، هدأتْ أصواتُ الرياح ليملأ صوتُ الشيخ كلَّ الفراغ، ويكون كلَّ تفاصيل الليلة وكلَّ أشياء الشارع .

اقتربتُ أكثرَ من المصدر حتى أستمتعَ به طازجًا دون وسيطٍ من فراغ أو هواء، رآني عمّ «حسني» وأنا أتسلَّل نحوه في تؤدةٍ خوفًا من أن يتلوَّث صوتُ الشيخ بقعْر نَعلي فأحضر لي مقعدًا من مقاعدِه الشهيرة التي يصنعُها للمقاهي البلدي، وهو يقول في ابتسامتِه المعهودة:

«اقعد اتْسَلطن، ودنَك دي عَفريت طَرب بتسوقَك دايمًا للجَمال!»

سألتُه عن اسمِ هذا الساحر..

ردَّ وهو يُعطِني ظهرَه مندمجًا في عمله:

«لا.. دا معرفهوش، وماكنتش مُنتبه لتَقديمه، بسّ غالبًا حاجة نادرة من خَبايا الإذاعة، دي تاني مرَّة تقريبًا أسمعه، عمومًا هانسمع اسمُه في النهاية لو هاتكمّل الحفلة».

لم أعقّب على الحديث حتى لا تضيع جلالةُ اللحظة، أو أزعجِ الأنامَ والفراغَ وهُم يستمعونَ لمولانا.

لكنَّ التعقيب قد أتى من أحدِ مستمعي الشيخ قدْ أطلَّ علينا من المذياع وهو يترجَّى الشيخ:

«برّاحة علينا يا عمّ الشيخ، قلوبنا عيّانة، والليلة طويلة، واحنا معاك يا سيدنا مش هانمشي، دا احْنا جايّين من بعيد عشان نقرَّب»

ليكملَ بعدَها الشيخ بقول الله تعالى:

{قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}

سكتَ الشيخ ثمَّ أعادَ {قال كلّا}

قلتُ: مِن أين أتى الشيخُ بهذه الآية؟! لم أسمعْها من قبل، لكنَّها سورةُ الشعراء التي أحفظها عن ظَهر قلب!

قالَها كأنْ لم أسمعْها من قبل، وقفٌ وابتداءٌ وشعورٌ وإحساسٌ غريب، له أثرُ نزول الوحي بآيةٍ جديدة.

سمعتُ «كلا» كأنَّ روحي تقولُها بثقة في وجْه كلِّ همومي في وجْه كلِّ سقوطٍ وقلقٍ وخوفٍ.. كلّا إنَّ معي ربي سيهدين.

«سيَهدين» تلك التي قالَها الشيخ بتماهٍ وهو يمدُّ الياءَ كأنَّه يغيظ كلَّ الأعداء من الخلف من مشكلاتٍ وندباتٍ وصعوباتٍ وسقَطات.

يعيدُ الشيخ مرارًا وتكررًا بصوتٍ غريب كأنه أتَى من السماء للتَّو، نزلَ مع المطر صوتٌ حديثُ عهدٍ بدنيانا رغم قِدَمه.

صوتٌ مُثقل بالهمِّ مُثقَل بالصدق مُعتَّق بالحزن، صوتٌ غيرُ

أكاديمي غير رسميٍّ، صوتٌ مَصنوع من تأوُّه أصحابِ الحاجات، ومِن أمنيات أهالي شارعنا وحارتنا، صوتٌ له طابَعُ زمان ومكانٍ فيه رائحةُ الغلابة وبساطةُ قولهم.

يعيدُ الشيخ ويزيد، وفي كلِّ مرةٍ بطريقةٍ أخرى وبشعورٍ جديد، وكأنه يتلذَّذ بتقلُّبنا مِن سياطِ شعوره، يتلذَّذ بتأوُّهِنا.

نفسٌ قصير غيرُ معتاد، لقرّائنا القُدامي وقفاتٌ غريبة، مَقاماتٌ موسيقية يذهب إليها بشُعوره غيرِ مستخدَمَة من غيره، لا يقرأ بقاعدة،

كأنَّه بكاء أمٍّ ثَكلى لم يلوّث صدقَه أيُّ افتعال، أو طفل يطلب حاجتَه من والديه ببكاء، وطريقة غير مُلتزمة بما ينبغي أو لا ينبغي فعله.

يظلُّ الأمرُ كذلك، سحرٌ وسحر، وذهابٌ إلى عوالم، وطوافٌ لا يهدأ حتى انتزعَ الشيخ منّا آهةً وجلة، قد تلاشى الصوتُ عن أسماعنا بعدَها، وأصبح الأثيرُ مشوَّشًا، لعلَّ الهواء قد تأوَّه معنا دون أن يَتحكم في سرعتِه، فأثر ذلك الإشارة، انقطاعٌ حدثَ قُبيل ختام الفقرة التي أعلمُ بموعدِ انتهائها من مُتابعتي الدائمة للإذاعة، باغتَنا تشويشٌ كأنه اختارَ موعدَه ليكون طعنة، حيث تجلّي شيخِنا الأخير، والخاتمة التي أنتظرُها كي أتعرَّف على قيثارة السماء.

ششششش ششش ششششششش

لحظاتٌ من التَّشويش كانت على نفْسي كعامٍ من التَّململ، حتى باغتَنا المذياعُ باستردادِ عافيتِه فإذا بالشيخ يتماهَى في نزوله

بصوتِه إلى قراره كي يختمَ تلاوتَه، وقبيلَ تصديقه إذا بالهواء ينشَط مرَّة أخرى كي يودعه بحرارةٍ فينقطع بذلك الإرسالُ مرَّة أخرى، ششش شششش، وكأنه فاصلٌ من الإثارة، أو أنَّ الشيخ يأبى أن يُعطي نفسَه بسهولة لمَن لم يجتهد في أن يعرفه.

بعدَ تسليمي لقرارِ القدَر، ويأسي من عودةِ الإرسال مرَّة أخرى فإذا به يأتي، ولكن هذه المرَّة على صوت مذيعِ إذاعة القرآن الكريم يختمُ ذلك السِّحر بتقطُّع من أثر ضعفِ الإشارة قائلًا:

في ذكرى وفاته كنّا مع تلاوةٍ عطرة من سورةِ شششششالعرا... لفَضيلة الشي شششششش شششش رمضان

ابنِ باب الشعرية، المَولود عامَ 1928ميلاديًّا، الموافِق شششششششش.

تمَّت